توفيق الحكيم

زهرة العمر

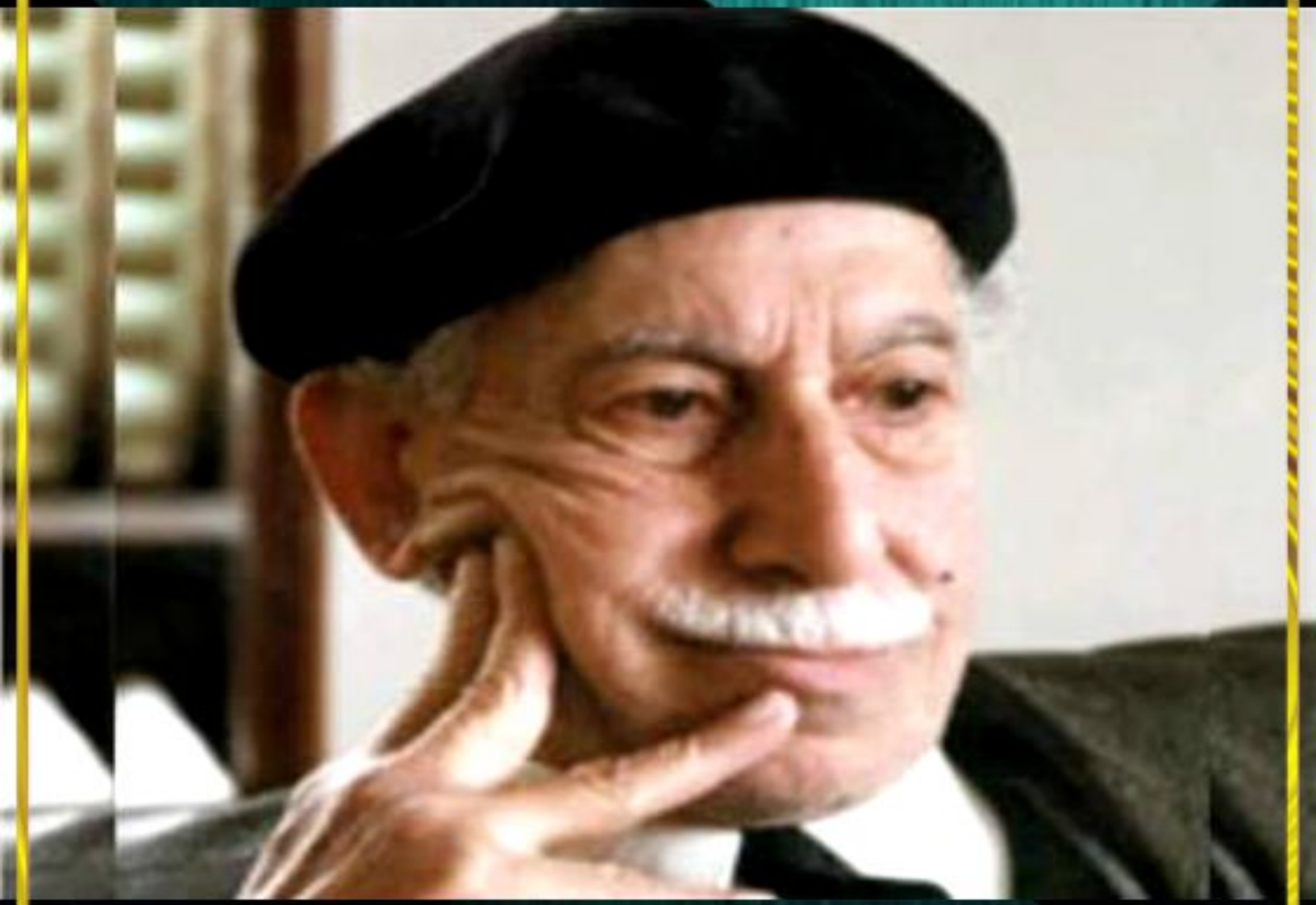

مكتبة علي بن صالح الرقمية

توفيق الحكيم

زَهْرَة العُمُر

سيرة ذاتية و رسائل

1943

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

مقدمة

هذه رسائل حقيقية كُتبت بالفرنسية في ذلك العهد الذي يسمونه «زهرة العمر»، وهى موجهة إلى مسيو «أندريه...» الذي جاء وصفه في كتابى «عصفور من الشرق». وقد بدأنا نتراسل بعد مغادرته «باريس» للعمل في مصانع «ليل» بشمال فرنسا. ولبثنا على ذلك إلى ما بعد عودتى إلى مصر، والتحاقى بالسلك القضائى. ثم انقطعت بيننا الرسائل والأخبار. وانتهى كل شيء، وجرفنا تيار الحياة، كل في واديه، فلم نلتق بعد ذلك إلا في عام ١٩٣٦، إذ سافرت لتمضية الصيف في فرنسا.. وكنت قد تركت القضاء وصرت مديراً لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف، ونشرت في الأدب عدة كتب، فوجدت «أندريه» قد أصبح رجلا مهمّا، ذا مركز مستقر في الصناعة الفرنسية. ووجدت زوجته «جرمين» على عهدى بها، لم ينل الزمن كثيراً من سالف جمالها. ولم أر للأسف طفلهما الصغير «جانو»؛ فقد غدا بالطبع شابّا يسعى مع الطلاب في الحى اللاتينى، ويشاركهم تلك الحياة الصاخبة النشيطة الهوجاء.

وتحدثنا مليّا فيما فعلته الحياة لنا.. وعند ذلك قادنى الصديقان من يدى إلى مكتبة الدار، برياشها التي لمست فيها حسن ذوق «جرمين» المعروف. وأشارا بزهو من خلف الزجاج إلى نسخة فاخرة التجليد من كتاب لى ترجم وقتئذ إلى الفرنسية، ونشر في «باريس»، مقرظا بقلم كاتب شهير، من أعضاء الأكاديمية. وقالا لى فخورين: «هذه ثمرة جهادك الذي كنا من شهوده...!».

ثم جعلنا نتذاكر الماضى، ونحن نتناول الشاى، فنهض «أندريه» يهدوء وصمت؛ واختفى لحظة، ثم عاد إلينا يحمل صندوقًا صغيراً وهو يقول باسمًا: لم يكن من السهل أن ننساك أو ننسى تلك الأيام؛ وهذه رسائلك عندنا نلمح فيها طيفك ماثلا أمامنا... أليس كذلك يا «جرمين»؟.. فمددت يدى إلى الصندوق على الرغم منى، واختطفت بحركة غريزية إحدى الرسائل، وطفقت أقرأ وأقرأ.. حتى نسيت نفسى ومن حولى والشاى الذي أمامى ولم أفطن إلى تنبيه الصديق وزوجه.. ولم أر سوى شيء واحد. هذا شبابى حقّا.. قد انتفض ماثلا لعينى.. كيف أتركه لكما؟.. وتنازعنا الرسائل. فحسمت «جرمين» النزاع آخر الأمر بقولها: إنا نثق بوعدك وكلمتك.. خذ رسائلك اقرأها كما شئت في شهر أو شهرين على أن تردها إلينا بعد ذلك، فوعدت، وحملت رسائلى برفق وحرص وحنان؛ كأنى أحمل الرماد المتخلف عن «زهرة العمر» الذابلة..

* * *

وأنستنى شئون ذلك الصيف كل شيء؛ فلقد شغلت بمن قابلت من الأصدقاء في جبال الألب، وبما شاهدت من مظاهر الفن.. في سالزبورج عن التفكير في هذه الرسائل، فلم أفتحها إلا بعد عودتى إلى مصر فكنت كلما خلوت إلى نفسى أطالع رسالة أو رسالتين وأنا أبتسم؛ ثم أطوى ما قرأت وأنا أفكر فيما كان وما هو كائن.. لقد أصبحت هذه الرسائل لازمة لى في وحدتى! ومرت الشهور في إثر الشهور، ولم أنس وعدى وكلمتى... ولكن ماذا أصنع؟.. عندئذ خطر لى أن أنقل هذه الرسائل إلى العربية، وأحفظها لنفسى. ولم أر بأسًا بعد ذلك من رد الأصل الفرنسى. فأخذت في نقلها ببطء كلما وجدت من الوقت فراغا ولم أردها إلى صاحبها إلا عندما سافرت إلى فرنسا «لتمضية» الصيف عام ١٩٣٨.

وهكذا بقيت عندى الصورة العربية لهذه الرسائل أجيل فيها النظر من حين إلى حين.. وأنا أحرص عليها وأضن بها ولا أرضى أن تقع عليها عين غير عينى.. فهذا شيء لى.. وهى جزء منى.. وقطعة من حياتى.. هى زهرة عمرى..

* * *

واندلعت نيران الحرب الأخيرة.. وانهارت فرنسا، فتذكرت الصغير «جانو».. لا شك عندى في أنه اشترك في هذه الحرب.. ومن يدرى أهو في القتلى أم في الأسرى أم في الجرحى؟.. إنى لم أزل أتخيله طفلا في الرابعة، يلعب أمامى في المطبخ بمنزل جدته في «كوريفوا» من ضواحى «باريس».. وأنا جالس إلى المائدة أتناول فطورى؛ وأقرأ كتاب «الجمهورية» ل «أفلاطون»... وهو يصيح بصوته الملائكى الصغير، رافعًا سيفه الزائف، ومصوبًا مدفعه الصفيح، نحو أعداء وهميين من «البوش» الألمان .. آه.. لقد دار الزمان وأصبح «جانو» شابًا قويًا. وقد حارب الألمان بالفعل.. ويالها من حرب!!..

أما صديقى «أندريه» وزوجته «جرمين» فأين هما الآن؟.. أهما بخير أم هما على ولدهما «جانو» متفجعان؟!..

اللهم لا تفجعهما في ولدهما وهو في زهرة عمره؛ فقد كانا رفيق شبابى، والإناء الذي أحاط بزهرة عمرى؟!..

* * *

واليوم وقد كادت زهرة العمر تذبل بعد أن جاوزنا الأربعين.. اليوم بعد أن اعتزلت وظائف الحكومة، ونزلت عن زخارف المجتمع، وانقطعت لأهيم كما أشاءُ في هيكل «أبولون» مكرسًا بقية حياتى للأدب والفن.. فإنى أرجع

بصرى القهقرى لأرى أيام الكد في سبيل التكوين الفنى.. ولقد أدهشنى حقّا ما رأيت في رسائلى هذه: لطالما قاومت وكافحت في سبيل التجرد والتحرر من كل ما يشغلنى عن الفن.. وهأنذا اليوم قد انتصرت.. نعم، انتصرت. فأنا الآن للفن وحده. ولا أرجو إلا أن يكون هو أيضًا لى قليلا، قبل أن ألفظ النفس الأخير... وبعد.. فلقد رضيت اليوم أن أنشر هذه الرسائل، تذكاراً للصديقين «أندريه» و«جرمين»، وتقديراً لولدهما الشاب الباسل «جانو»، وإيثاراً لقرائى على نفسى.. قرائى الخلصاء الذين قد يعنيهم أن يطلعوا على صفحة من حياتى.. على أن من واجبى أن أشير إلى أنى وجدت للأسف أكثر هذه الرسائل غير مؤرخ. ولم يكن في مقدورى ترتيبها على حسب التواريخ، ولا حتى حسب الحوادث، ترتيباً دقيقاً. ولعل ترتيبى هذا هو أقربها إلى الحقيقة والمنطق. فإذا بدا شيء من الاضطراب في تسلسل الوقائع. أو شيء من التكرار في بعض التفاصيل فإن ذلك راجع ولا ريب إلى طبيعة الرسائل في ذاتها، وقد كانت رسائل خاصة لم يخطر قط على بال أحد أنها قد تُقَدّم للنشر يومًا.. والرسائل الحقيقية ليست عملا مؤلّفًا حتى يُستباح فيها التنقيح والحذف والتهذيب؛ فإن مزيتها الوحيدة هى التشجّع على نشرها بخيرها وشرها، وإنى ـ توخياً للصدق ـ لم أحذف حتى ما كان يحسن حذفه من عبارات أو فقرات أو حوادث، قد يُعتبر نشرها ماسّا بشخص المرسِل أو المرسَل إليه..

من باريس

الرسالة الأولى

«باريس» ـ شارع «بلبور» في...

عزيزى «أندريه»!..

صدقت فراستك.. الخيال قد أضاعنى يا «أندريه»... أنا شخص شقى، وليس الشقاء هو البكاء .. وليست السعادة هى الضحك.. فأنا أضحك طول النهار؛ لأنى لا أريد أن أموت غارقًا في دموعى.. أنا شخص ضائع مهزوم في كل شيء.. وقد كان الحب آخر ميدان دحرت فيه.. وإذا كنت تسمع من فمى أحيانًا أناشيد القوة والبطولة فاعلم أنى أصنع ذلك تشجيعًا لنفسى؛ كمن يغنى في الظلام طرداً للفزع... هأنتذا اليوم ترانى أكتب إليك عن القوة والشخص القوى، وأنا بهذا أحاول أن أوهم نفسى أنى قوى.. إنى أشعر براحة وعزاء؛ إذ أتحدث في وحدتى عن القوة... ويخيل إلىّ لحظة أنى ذلك الشخص الذي عناه «إبسن» بقوله: «الرجل القوى هو الرجل الوحيد»!..

كفى كلاما عن نفسى... إنها لا تستحق أن نتحدث عنها أكثر من ذلك.. أحدثك الآن عن أحوالك أنت، وعن خطابك الذي صببت علىّ فيه كل لعناتك.. قبل ذلك أقول لك: إنى مغتبط لرضاك عن عملك الجديد بمصنع «ليل»، أما اكفهرار الجو المستمر في هذه المدينة الشمالية فهو خير على كل حال من اكفهرار وجه الحياة.. أخبرك أن آخر مرة رأيت فيها «جرمين» كان مساء الأربعاء الماضى حيث تناولنا معًا العشاء بصحبة

«جانو» الصغير.. وسأراها يوم الأحد القادم؛ فهى لا تستطيع مقابلتى قبل ذلك اليوم الذي تعطِّل فيه من مصنع «كوربفوا»، وليس بى حاجة إلى أن أؤكد لك شوقها الشديد!..

هنيئًا لك حب زوجك وولدك.. النقود وصلت... ثلثمائة من الفرنكات بالتمام... أشكرك وأرجوك ألا تستدين من غيرى، ولا منى إلا للضرورة؛ فإنى أعرف فيك الإسراف والتهور أحيانًا، وحب مغازلة النساء الجميلات!..

يجب أن ترعوى، وإلا أخبرت «جرمين» بكل شيء.

الرسالة الثانية

«باريس» ـ شارع «بلبور» في...

عزيزى «أندريه»!..

أشكر لك خطابك، وآسف لما سببه لك خطابى من حزن لأجلى، ما كان لى الحق في أن أضيف ما بى إلى ما بك؛ فهذا حِمْل ثقيل لا أرضاه لك.. إنى أؤنب نفسى الآن؛ لقد ألجأها الضعف إليك للتوكُّؤ عليك، وفاتها أن في ذلك إزعاجًا لك.. قاتل الله الضعف، ومع ذلك، لولا هذا الضعف الإنسانى ما وجدت العواطف الإنسانية الجميلة، التي تنتج أحيانًا الأعمال الإنسانية العظيمة!..

إن الضعف هو أيضًا مظهر جمال في بعض الأحيان، لا يجب أن ننسى ذلك.. إنه جمال الإنسان الذي يمتاز به عن إله قوى لا رقة فيه ولا شعور!..

لماذا نَعُدُّ دائمًا الضعف البشرى نقيصة؟.. ما دمنا قد وصمنا به إلى الأبد فلنحترمه أحيانًا، ولنستثمره، ولنحوله إلى فضيلة من فضائل البشر.. بغير هذا فإن الحياة لن تُحتمَل. أترانى أعزى نفسى يا أندريه بهذا الهراء من الكلام؟!..

أترانى أقلب «الحقائق» كى أرى الدنيا ملأى بالحسنات والفضائل، خليقة باحترامنا، جديرة بتحملنا الآلام في سبيل المكث فيها؟.. لا تضحك ولا تسخر، ولا تتهمنى بالحمق: فإنك قد تحترمنى قليلا وتدهش لقوة احتمالى

إذا عرفت مبلغ ما تجمع على رأسى من شقاء.. ومع ذلك ما زلت أحاول انتزاع ابتسامة من شَفَتَى الحياة. لا أريد أن أحدثك عن نفسى أكثر من ذلك.. لكن.. فلأحدثك قليلا لتعلم أنك بالقياس إلىّ أسعد المخلوقات طرّا؛ فأنت الآن ناجح في حياتك تجد من يقدر عملك وجهدك وينقدك عليه أجراً معقولا، والمستقبل أمامك جَلىّ كالنجم اللامع في السماء الصافية!..

وقد قلت لى إن مصانع «ليل» تتخطفك، وإنك ترقى في درجات العمل الأولى سريعا، ثم أنت فوق ذلك رجل محاط بالحب والعطف من زوجك وولدك.. أنت محب محبوب، ومن تحب تحرص عليك وترى فيك المثل الأعلى، لا للرجولة وحدها والبطولة ومكارم الأخلاق؛ بل للجمال أيضاً. لكم أدهشتنى «جرمين»، ذات يوم وأنا أريها صورة «رودلف فالنتينو» في إحدى الصحف قائلا لها: «إليك صورة أجمل رجل في العالم»، فقد قالت للفور: «أندريه» أجمل منه!..

ألا توافقنى على أن «أندريه» أجمل منه؟..». ماذا تريد أكثر من ذلك؟.. وماذا يريد إنسان أكثر من ذلك؟ إنك لا تعرف الشقاء.. أما أنا فأعرفه.. إنه فجيعة الإنسان في آماله؛ نحن.. إنما نعيش داخل آمالنا.. فإذا اندكّت فنحن كالنمل الشارد في الشتاء العاصف.. لا تنظر إلىّ بعين سخريتك، يا «أندريه».. ولا تظنّنّ أنى أعنى الحب.. فلو أنه هو الذي انهدم وحده عندى لما حزنت كثيراً، ولكن كل شيء انهدم يا «أندريه».. لم يعد لأيامى مذاق؛ فهى كالماء القراح أجرعه على غير ظمأ، والمستقبل أمامى محوط بالضباب.. يخيل إلىّ أنى هويت قبل الأوان، كالثمرة التي تسقط من الفرع قبل النضوج.. أمامى برقية من أبى المسكين يقول: «أبرق لنا في حالة نجاحك»!..

كلمة النجاح غريبة على أذنى الآن... أأنا أستطيع أن أنجح في شيء؟.. إن اسمى كما تعلم مقيد منذ زمن بجدول المحامين في بلادى... إنى في عرف

القانون محام، ولكن أى محام؟!..

لقد كانت فجيعة لأبى المسكين أيام أن كان يسمع ويرى أنى أنسى صفتى كمحام، وأنحشر في زمرة الممثلين، أو أولئك الذين يسمونهم عندنا «المشخصاتية»... الحق أنهم في مصر ليسوا بعد من الطوائف المحترمة. لقد كان ملحن رواياتى «كامل الخُلَعِى» معى على قارعة الطريق «يدندن» ويلحِّن وهو عارى القدمين إلا من «قبقاب» خشبى.. تلك كانت بدايتى الفنية والأديبة... في عين الوقت الذي كان غيرى يبدأ حياته الأدبية بالكتابة السياسية، فيظهر سريعًا بالشهرة والاحترام... ولو أنى فعلت ذلك لرضى عنى أهلى بعض الرضا، فالفرق شاسع في مصر بين خدمة رجال السياسة وخدمة رجال «التشخيص»!..

وهأنذا لم أظفر بشهرة ولا ذكر، بينما لمعت أسماء أولئك الذين اختاروا الطريق الآخر المحترم.. فسهل عليهم أيضًا بعدئذ ـ كما رأيت ـ أن ينتقلوا منه إلى الأدب... محتفظين بأثواب التّجِلّة ومظاهر التقدير... أما أنا ـ الذي اخترت الفن من البداية صرفا صريحًا ـ فلا أستطيع أن أنتقل إلى شيء... غير الانحطاط الاجتماعى.. ولقد خشى والدى المتوجع أن يجرفنى التيار عن حياة القضاء التي عاشها بشرف، فأشار عليه المخلصون أن يقصينى عن مصر فترة من الزمان... فأرسلنى كما ترى إلى هنا لعلى أسلو الفن، وأنصرف إلى ما يتمناه لى من حياة قانونية محترمة؛ فماذا أنا قائل له الآن؟... وبماذا أرد على برقيته؟... ثم أمامى خطاب ممن أحببت، وأوهمتْنى بنعيم دام أسبوعين، تكشف لى فيه عن المهزلة، ولم تترفّق فتترك لى حتى ذكرى تلك الأيام القليلة سليمة جميلة... لقد شاءت أن تسترد كل شيء حتى الأوهام والأحلام، فجردتْنى منها بعبارة واحدة: «أتمنى أنى ما عشت قط هذين الأسبوعين...»! يا إلهى إلى هذا الحد؟!..

وها هى ذى تغنى اليوم لرجوع كل ود بينها وبين حبيبها الحقيقى... أسمع غناءها من نافذة حجرتى فأضحك... لكن أى نوع من الضحك؟!..

ثم أمامى قصاصات من نقد صحف مصر لرواياتى التي تمثّل في القاهرة... فإذا أنا موضع السخرية، ودراساتى التي لا تؤدى إلى نتائج، وشراهتى في المعرفة التي تسبق قدرتى الذهنية وقوتى الجثمانية ووقتى المادى؛ كل شيء حولى يهدمنى هدمًا!..

الرسالة الثالثة

«باريس» ـ شارع «بلبور» في...

عزيزى «أندريه»!..

معذرة لإبطائى عليك في الرد؛ فقد أصبت ببرد وسعال أقعدنى في الفراش أياما. وأنتهز هذه الفرصة لأبلغك شكرى الخالص «لجرمين» على قلقها وعنايتها... كما أخبرك أيضًا أنها دعتنى بعد ذلك إلى وليمة عشاء بمسكنها، حيث نصبت المائدة إلى جوار المدفأة... لن أنسى مطلقا ذلك الحساء اللذيذ «كريم فرميسيل»!..

أهنئك باستكشافى في «جرمين» ـ فضلا عن ذكائها وأدبها وخلقها ـ ذلك الفن الجميل المفيد: فن الطهى... ثق بأنها طاهية من الطبقة الأولى... إنها تستحق «الكوردون بلو» ... هل ذقت فطير الأرز من صنعها؟.. وأسفاه!..

كان بى ما يزال أثر المرض، فلم أهجم على هذا اللون إلا هجوما رفيقا على الرغم منى. أكرر شكرى «لجرمين» على هذه الوليمة، وعلى تلك الغلالة الحريرية التي أعارتنى إياها لأجعلها حول عنقى خوف البرد... «جانو» يقبِّلك وقد قبّلته عنك!..

الرسالة الرابعة

«باريس» ـ شارع «بلبور» في...

عزيزى «أندريه»!..

لم أكتب إليك ولا أدرى لماذا لم تكتب إلىّ أنت؟... لعلك كنت تنتظر ردّى؟... وردى لم أجد له قيمة ولا فائدة، لأن كتابك الأخير لم يكن فيه ما يوجب الرد، أما «جرمين» فهى على ما تروم، وكذلك «جانو»، وقد قابلت «جرمين» منذ ثلاثة أيام وليس عندى ما أقوله ... أما أنت فقد أثبت لى أن مقامك في «ليل» بعيداً عمن تحب، قد كشف عن رقة في مشاعرك لا أعهدك بها خليقًا... أخشى أن أقول إن قدمك كادت تنزلق إلى شاطىء الخيال الذي كنت تسخر منه... لا تهزأ قط بالحب والخيال!..

هأنتذا تستطيع أن تحدثنى اليوم عنهما أكثر مما أستطيع أنا.. نعم.. لقد كان يخطر لى أحيانًا أن الحب هو العمود الفقرى للكون... وأن الله كى يقيم القيامة وينهى الحياة لن يأمر «إسرافيل» بنفخ الصّور ـ كما يقولون عندنا ـ بل سيأمر «الموت» ليهوى بفأسه على «الحب»، وبموت الحب في الأرض ينتهى العالم... تصورت ذلك ليلة، وأنا في فراشى أطالع تاريخ المذاهب الاقتصادية، ولقد تركت أوراقها تسقط من يدى؛ لأغرق في تفكير عميق حول مسألة بعيدة كل البعد عن تاريخ المذاهب الاقتصادية.. على أنى الآن أنقض هذا الخاطر، ويخيل إلىّ أن الحب في هذا العالم عضو سوف

يتمكن العالم الحديث من بتره واستئصاله، دون أن تخسر الإنسانية شيئًا كبيرًا... ما رأيك يا أندريه؟... أريد رأيك في هذا، لأن رأيك ذو قيمة كبرى؛ فهو صادر عن منطق طالما أنكر سلطان الخيال!..

أما أنا فقد أنكرته، أو على الأقل سائر في طريق إنكاره والإيمان بالواقع... الدليل: أنى أرغم نفسى الآن على الاستعداد للتقدم لامتحان الدكتوراه في القانون؛ إرضاء لأهلى... لا شيء يعوقنى عن النجاح غير طبيعتى التي خلقت للضياع في الفضاء لا للوقوع في قيود الدكتوراه وحدود المعارف الجامعية... نفسى قد خلقت لتقرأ ما تريد وقتما تريد؛ لتحيط علمًا بكل شيء، وتسعى إلى تأمل كل شيء، وتستبقى في الذاكرة ما تشاء وتنسى ما تشاء... أما تتبع دراسة منتظمة لجزء معين بالذات من العلوم يستذكر استذكارا ليُسْتفرَغ بعد ذلك استفراغا بين يدى ممتحنين ومحلفين...؟! هنا كل المشكل يا صديقى «أندريه»...

الرسالة الخامسة

«باريس» ـ شارع «بلبور» في...

عزيزى «أندريه»!..

وصلتنى رسالتك، وأعجبت جدّا بتلك الطريقة المدهشة التي جعلتنى أعتقد، ولمدة خمس ثوان فقط، أنى أمتلك ثلثمائة فرنك.. ولما يمض الوقت الكافى لشكر الله وشكرك... بل لما يمض الوقت الكافى للتفكير في مصدر هذه النقود... لقد أعطيتَنى الوقت الكافى؛ لأفرح قليلا، ثم لم تمهلنى، وصدمتنى بالواقع وهو أن تلك الثلثمائة من الفرنكات ليست فقط «غير مِلْكى» إنما هى «طُعْم» لاستجرار مائتين من جيبى!..

واهًا لك أيها الشيطان!..

على أنى غير حاقد عليك ولا ناقم فحظك حسن؛ إذ قبل ورود خطابك كانت نفسى مستعدة لتقبل مثل هذا الخطاب!..

وتفصيل الأمر أنى البارحة قابلت «جرمين»، وتحدثنا في أمور شتى، فهمتُ من خلالها أن قسط إيجار مسكنها سيحل في منتصف هذا الشهر، ومع أن هذا الأمر لم يكن موضع اهتمام لديها ولا لدىّ أثناء الحديث... إلا أنه جعلنى أفكر بعد مغادرتها في مصدر النقود وفي حالتك، وما يجب فعله إذا أعلنتَ إفلاسك... ولما كنت أعرف من علم الاقتصاد السياسى أن الضرائب غير المباشرة ـ عند أصحاب المذهب الزراعى ـ تقع غالبًا وأخيرًا على رأس

المالك العقارى، فقد خطر لى أنى أنا في هذه المسألة بمثابة المالك العقارى، بمعنى أن كل إفلاس أو كارثة لابد أن تقع، ويجب أن تقع على رأسى غالبًا وأخيرًا.. هذا هو سر تقبلى رسالتك بصدر رحب، على غير العادة، وقد نفذتها أو سأقوم بتنفيذها بلا تضجر ولا تبرم... فأنا أحب أن تعرف أنى لا أثور، ولا أعنف إلا عند عدم اقتناعى بصواب أبواب الإنفاق؛ إسرافا منك، أو جنونًا، أو اعتمادًا على سهولة الاقتراض!..

وبعد فإنى سأرى «جرمين» مساء الجمعة القادم؛ كى نذهب معًا لمشاهدة رواية جديدة في مسرح الحى. وأرجو منك أن تدع «جرمين» تفهم أن صلتى بها لا تستمد قوتها من صداقتك، وإنما هى صداقة أخرى مستقلة، تقوم على احترامى لشخصها وتقديرى لذكائها؛ فأنا لا أحب «لجرمين» أن تفهم أنى موفد من قبلك؛ خرجتُ للنزهة بين آن وآن... ولا أنى أتكلف هذا، قضاء لواجب من الواجبات.. على أنى قد ضحكت كثيرًا وأنت تخبرنى في خطابك أنها لن تنسى ذلك التفانى منى في خدمتها، وأنها لا تشكو إلا أمرًا واحدًا: هو أنى لم أحاول قط مغازلتها!..

يالَظُرْف الباريسيات... أوَ كانت تظن أنى ـ وأنا الشرقى ـ أجرؤ على ذلك في غيبتك؟... أفْهِمْها أنى سأحاول ذلك مرة في حضرتك؛ لتعلم أنى لست ممن يستهين بجمالها.. ومع ذلك فهى لا تجهل أى سرور أجنيه، وفائدة لا تُقدّر أن يتاح لى لقاؤها من حين إلى حين، فإنك لن تتصور مقدار ما يُحْدثه جلوسى إليها من نتائج فكرية!..

إنك تعرف مقدار فائدة المرحوم «إيفان» لى، وفائدة الشاعر البارناسى الهرم!..

هأنتذا ترى كل شيء يُدفع ثمنه في هذا الوجود، وأن ما تحسبه خدمات أقدمها إليها لا يعادل ما تؤديه هى إلىّ، وما تؤديه أنت أيضًا، من فوائد إلى

شخصيتى وهى في سبيل تكوينها.. لا تسخر ولا تتهمنى بالإسراف في الخيال!..

كلا يا «أندريه»، غداً تزول الحسابات المادية، ولن يبقى لنا غير ذلك الربح المعنوى، الذي اكتسبه أحدنا بمعرفة الآخر!..

وختاماً أقول لك إن أحوالى ـ التي تريد أن تصغى إلى أنبائها ـ سوف أحدثك عنها فيما بعد... وأما روايتى التي كتبت منها قليلا، فقد أهملت شأنها منذ شهور. وقد انتهى رأيى إلى استحالة المضى فيها وأنا في هذه البيئة الأوربية العاصفة، هذه البيئة الحديثة وما يسود فيها من جو «المودرْنِزم» الذي يفسد حسن فهمى للأشياء، ويحول دون تعرفى حقيقة شخصيتى في الفن والأدب!..

أنا أحب «المودرْنِزم»، وأخشى أن أقول لك: إنى أقلد أساليبه على الرغم منى... وهذا بالذات ما يخيفنى، ويدعونى إلى التريث حتى تهدأ عاصفة هذا الفن الحديث، ونعرف إلى أى حد يستطيع أن يثبت إلى جانب الأساليب التي اعترف بها التاريخ... لقد شاهدت في المسارح أخيراً قصصاً تمثيلية، على طراز النزعة الحديثة؛ مثل قصة «au grand large» كما شاهدت قصص ما قبل الحرب مثل «الماضى» ل «بورتوريش» و«الجدول» ل«بييرفولف»، واطلعت على رأى النقاد في ذلك... أتدرى ماذا فضل النقاد؟... إنهم فضلوا قصص «ما قبل موجة المودِرْنِزم» ورأوها هى الخليقة بالبقاء!..

الرسالة السادسة

«باريس» ـ شارع «بلبور» في...

عزيزى «أندريه»!..

لست أدرى: أمن سوء حظى أم من حسنه، أنى أعيش الآن في أوربا، وسط هذا الاضطراب الفكرى، الذي لم يسبق له مثيل؛ فهذه الحرب الكبرى قد جاءت في الفنون والآداب بهذه الثورة، التي يسمونها «المودرنزم»؛ فكان لزامًا علىّ أن أتأثر بها، ولكننى ـ في الوقت ذاته ـ شرقى جاء ليرى ثقافة الغرب من أصولها، فأنا موزع الآن كما ترى بين «الكلاسيك» و«المودرن» لا أستطيع أن أقول مع الثائرين: فليسقط «القديم»؛ لأن هذا القديم أيضًا جديد علىّ.. فأنا مع أولئك وهؤلاء.. إنى أخرج مثلا من «متحف اللوفر» متحمسًا لأعمال «تسيان» و«دافنتشى» و«فلاسكز» و«جويا» و«مملنج» و«فان ديك»؛ لأدخل بعد ذلك توّا معرض الخريف، أشاهد أحدث لوحات الفن الحديث، بألوانها الصارخة «الفاقعة»، وخطوطها البسيطة العارية. إن الفكرة المسيطرة على الفن الحديث هى: الفطرة والبساطة.. يطلبون في الفطرة النضارة، ويذهبون في البساطة إلى حد التركيز... لقد غالوا في التركيز لدرجة المناداة بفصل عناصر كل فن عن الآخر فصلا تامّا؛ فالتصوير ـ وهو فن الألوان ـ يجب أن يستغنى عن الموضوع؛ لأن الموضوع من عناصر القصة، والشعر ـ وهو فن الشعور ـ يجب أن يستغنى عن العقل الواعى «مذهب الدايزم»، والموسيقى ـ وهى فن الأصوات ـ يجب أن تستغنى عن الشعور،

والنحت ـ وهو فن الأحجام ـ يجب أن يستغنى عن الأفكار... إلخ... وهذا قليل جدّا مما جاءت به نظريات «المودرنزم»، ولا أحب الإسهاب فيها، لأنى أكره النظريات في الفن؛ فالفن عندى خلق إنسانى جميل لا أكثر ولا أقل، وقد يكون في «المودرنزم» نفسه ـ على الرغم من نظرياته ـ بعض جمال، ولكن ذلك لن يدعونى مطلقاً إلى النداء بسقوط «رفاييل» و«لافونتين» و«بيتهوفن»؛ من أجل ثورة تنادى بها طائفة تحاول ـ بأى ثمن ـ الإتيان بجديد!..

لقد قرأت أخيرا لكاتبة فرنسية «مودرن»، تقول عن حركة «المودرنزم» ما معناه: إنه بعد عشرين قرنا من حضارة مفعمة بألوان البراعة الذهنية، والحذلقة الفكرية، وحياة الصالونات، والأكاديميات؛ غدت الدنيا مثل غانية عجوز، مفرطة في الزينة والبهرج والأصباغ، بمقدار بعث في الناس عطشاً إلى عصور الفطرة الأولى، بناسها العراة وإحساسها المجرد. وإن قيمة الفن الحديث، هى في أنه يحاول أن يعيدنا إلى النضارة الفطرية البدائية، وإلى مصادر الإلهام الأولى!..

فقول هذه الكاتبة صحيح؛ لأن مصادر الفن الحديث: سواء في الروح أو في الأسلوب؛ مستمدة حقّا من الفنون الأولى مباشرة!..

إن أثر مصر القديمة ظاهر في العمارات الحديثة والنحت الحديث، بل إن الإمعان في طلب الفن الفطرى وصل إلى حد استلهام فن الزنوج!..

إن أثر الفن الزنجى واضح في التصوير الحديث، والموسيقى الحديثة، والرقص الحديث!..

سأحدثك ـ في رسالة أخرى ـ عما سمعت أخيراً من موسيقى!..

إنى لا أترك الآن أسبوعا واحداً، دون أن أذهب إلى قاعة «كونسير» «بليبل» أو إلى «كونسير» «كولون» أو «پادلو»، بل إنى أحضر حفلتين

أحيانًا في يوم واحد... لقد حضرت الأسبوع الماضى ثلاث حفلات موسيقية في يومى السبت والأحد. فقد أدوا في الأولى: «ذهب الرين» ل «فاجنر»، وفي الثانية: «السانفونى فانتاستيك» ل «برليوز»، وفي الثالثة «السانفونى» السابعة ل «بيتهوفن». سوف أحدثك أيضًا عن الموسيقى الإسبانية، وقد حضرت فيها حفلتين: إحداهما للموسيقى «هافلنر»؛ كما أنى محدثك عن الموسيقى الروسية، بعد أن سمعت للمرة الثانية «سادكو» ل «رمسكى كرساكوف»... وعلى ذكر «فاجنر» وصداقته المعروفة للفيلسوف «نيتشه» كدت ألمس بنفسى أثر تلك الصلة الفكرية بينهما، وأنا أصغى إلى نغمة «سجفريد» المتكررة!..

تلك التي يسمونها ال «Leitmotiv».. إن استخدام «فاجنر» لنغمة واحدة بالذات، يطلقها رمزًا لكل بطل من أبطال «أوبراته»، ويجعلها تعود كلما عاد البطل إلى الظهور؛ لتذكرنى بكلمة «نيتشه»: «هناك حادثة متكررة تعود من آن إلى آن في حياة كل إنسان»!..

الرسالة السابعة

«باريس» ـ شارع «بلبور» في...

عزيزى «أندريه»!..

أرسل إليك ما كتبته من الرواية منذ شهور، وهو كما ترى فصل وشىء من فصل، اقرأهما وأخبرنى برأيك، وثق كما أخبرتك بأنه ليس في عزمى مطلقًا أن أتم هذا العمل رواية كاملة؛ للأسباب التي ذكرتها لك، وأزيد عليها سببًا آخر: إنى لا أدرى بأى أسلوب بدئت، وبأى أسلوب تختم!..

فأسلوبى الآن خاضع لتطورات سريعة مستمرة. ولقد سبق لك أن اطلعت على قطعة «الحلم»، التي أرسلتها إليك، وهى تختلف في أسلوبها عما ستقرأ من هذه الرواية. على أن الذي أرجوه منك هو أن تعيد إلىّ المخطوطة، بعد قراءتها، لأنى لا أملك نسخة أخرى...

الرسالة الثامنة

«باريس» ـ شارع «بلبور» في...

عزيزى «أندريه»!..

نفّذت طلباتك بالتمام، وعلمت أن «جرمين» لم تبطئ عليك في رسائلها عن قصد سىئ!..

لا تجعل الخيال يضلك أنت أيضًا، أيها المتشدق بكلمة «الواقع»!..

آه، الآن فهمت أنك كنت ظالمى بسخريتك من حبى المنحوس وعواطفى وخيالى!..

لقد انتقم لى القدر!..

والآن دعك من تفاصيل الحياة التافهة!..

حدِّثنى بخُطُوات بعيدة عن التفاصيل... خُطُوات منبعها تفاصيل، وليس فيها تفاصيل... ما قيمة التفاصيل في هذه الحياة، إن لم تكن لاستخراج قوانين عامة، أو أفكار جميلة؟... يسرنى كثيراً أن أراك قد هدأت؛ لنسترجع فيك «أندريه» الواقعى الرزين المازح!..

أما نواحى ضَعفى التي أشرت إليها فإنى أحب أن أعرفها واضحة جلية، وإلا فلست لى بصديق، وأما الموسيقى فقد سمعت في السبت الماضى «السانفونى دومستيك» ل «ريتشارد دستراوس»، و«أغانى الأناضول» لموسيقى تركى

هو «جمال راشد»... وقد سررت كثيراً بهذه الأغانى؛ لأنى استطعت أن أتنبأ بحالة موسيقانا القومية في مصر والشرق، لو وُضِعَت داخل هذا الإطار الفنى «L'orchestration»، ويظهر لى أن «جمال راشد» قصد إلى ذلك، غير أنه ـ فيما يخيل إلىّ ـ قد أسرف في تقليد الموسيقى الروسية؛ فلم أتمكن من تعرف ملامح الموسيقى التركية في صميمها. إلا في قطعة واحدة.. ولقد ذهبت أمس «الأحد» إلى «اللوفر» كعادتى، وإنك تعلم لماذا أواظب على الذهاب إلى «اللوفر» كل أحد؛ فهذا هو اليوم المخصص للدخول بالمجان، وإنى لأنفق طول يومى هناك، دون أن أحس مر الوقت.. بل إنى أدركت ـ منذ أسابيع ـ خطأ التوزّع بين قاعات المُتْحَف في يوم واحد!..

ذلك شأن المشاهد السريع: أتدرى ماذا أصنع الآن يا«أندريه»؟.. إنى أخصص يوما كاملا للقاعة الواحدة.. فأنا لست سائحا متعجلا.. إنى أبحث أمام كل لوحة عن سر اختيار هذه الألوان دون تلك، وعن مواطن برودتها وحرارتها، وعن رسم أشخاصها وبروز أخلاقهم، واتساق جموعهم، وحركتهم وسكونهم... كل لوحة في الحقيقة ليست إلا قصة تمثيلية داخل إطار، لا داخل مسرح، تقوم فيها الألوان مقام الحوار... إنى لأكاد أصغى إلى أحاديث الأبطال وهم على الموائد في «أفراح قانا» لوحة «فيرونيز»، وأكاد أسمع ضجيج الحاضرين، وصياح الشاربين، ورنين الكئوس، وخرير النبيذ، يفرغونه من دن إلى دن!..

إن طريقة إبراز كل هذه الحياة بالريشة لقريب من طريقة إبرازها بالقلم!..

إن أساس العمل واحد فيهما: الملاحظة والإحساس، ثم التعبير بالرسم والتلوين، بل إن الروح أحيانًا ليتشابه... لطالما وقفت عيناى طويلا على صفحات ناثر أو شاعر، وأنا كالمأخوذ أفحص السطور بيدى؛ لأتبين إن كانت من مداد أو من أثير!..

إن روح الكاتب أو الشاعر لتشف أحيانا وتخف وتتحرك في الأجواء بلطف كأنها نسيم راقص!..

هذا الشعور ملأ نفسى وبصرى أمام لوحة، مثل «الربيع» ل «نيونيتشَللى» التي يصور فيها رقص «الحسان الثلاث» في غابة البرتقال، و«فينوس» قُرْبَهن تتبع بيدها وقع الخُطى!..

و«النسيم» من حولهن يعانق الأزهار.. أو مثل لوحة «موريللو» عن «صعود العذراء»، وهى ـ في جمالها الطاهر ـ تخترق السماء وفي ذيلها القمر، ومن حولها الملائكة!..

إن الشِّعر والرقص والموسيقى ليتناثر أريجها مجتمعة، في جو مثل هذا الفن العظيم!..

الرسالة التاسعة

«باريس» ـ شارع «بلبور» في...

عزيزى «أندريه»!..

سررت لخطابك الضخم، الذي انهلت علىّ فيه طعنًا وتقطيعًا وتجريحًا!..

ولا أستطيع كيف أشكر لك عنايتك بتحليل شخصيتى المنكودة. ومع أنك تزعم أن قسوتك كان الدافع إليها الانتقام فهذا عندى لا يغير شيئًا من جوهر الموضوع، ما دامت النتائج التي وصلت إليها صحيحة!..

نعم إن خيالاتى كثيرة أحيا بينها تارة الآلام؛ كما تقول، وتارة الأحلام التي لن تتحقق يومًا... هذا صحيح!..

وأكثر منه يا «أندريه» أن خيالى مع الأسف ليس من نوع الخيال المثمر، الذي خدم الشعراء والكتاب، بل هو من نوع الخيال المهلك، الذي أضاع في وديانه السحيقة كثيرًا من عاثرى الحظ، الذين حسبوا أنفسهم شعراء زمنًا طويلا، وهم ليسوا بشعراء!..

ثم هنالك شيء آخر إخالك لم تلتفت إليه، وهو طبيعتى التي تميل إلى عدم الأخذ بما يأخذ به الناس جميعًا من أوضاع؛ هربًا من الوقوع في الابتذال، وشغفًا جنونيّا بالتميُّز والإغراب؛ ففى لبسى لا أرتدى كما يرتدى الآخرون، ولا أدخن لأن التدخين عادة عامة، وربما دخنت لو انقطع الناس عن التدخين؛

لا أهدى إلى حبيبتى الأزهار الجميلة، ولا العطور اللطيفة، بل أهدى إليها ببغاء في قفص، ولا أكتب إليها مباشرة عن الحب، بل أتّبع طرقا لن يتّبعها عقلاء الناس!..

وتسألنى بعد ذلك لماذا أحب «المودرنزم»؟.. أليس لأنه أقرب الفنون إلى الخروج على المتبع المألوف؟... لقد قالها أحد النقاد الحاقدين على هذا الفن: إن أهل هذا الفن يأتون كل سخيف مهجور، بحجة جِدّيّة الابتداع والتفنّن في الابتكار.. الواقع أنى وجدت في هؤلاء ليس فقط مأوَاى ومعقلى؛ بل وجدت كل طبيعتى وما تنطوى عليه من حمق وجنون... لقد وجدت على الأقل سنداً وأساسًا لرغبتى المحرقة في الخروج على ما أسميته «المنطق العام»، وأقصد المنطق المبنى على فروض عامة مصطلح عليها غير متنازع في صوابها. كالفرض بأن الغَيْرة مثلا دليل الحب، أو أن الخيانة رذيلة؛ فالنتائج المترتبة على هذه الفروض العامة تكون في الغالب هى الأخرى نتائج عامة، ويصح عندئذ تسمية كل ذلك بالمنطق العام. أريد أن يكون هنالك منطق خاص يحوى فروضًا خاصة، لا تخضع للمألوف من الآراء والمشاعر؛ كالفرض بأن الحب لا يحوى غيرة مطلقًا ولا بغضًا مطلقًا!..

ومن مثل هذه الفروض تتولد نتائج خاصة. ومن خلاصة كل ذلك يقوم ذلك الذي أسميه «المنطق الخاص»!..

لذلك تجدنى أفهم حركة «المودرنزم» على الوجه الآتى: هى اتجاه إلى عدم التقيد بالمنطق العام، والنزوع إلى المنطق الخاص؛ كما كان «الرومانتيزم» بالنسبة إلى «الكلاسيسيزم» في بعض مظاهره؛ نزوعًا في التفكير والعواطف من العام إلى الخاص، مع هذا الفارق في نظرى بين «الرومانتيزم» و«المودرنزم»: إن الأول لم يحاول هدم الفروض الأساسية المألوفة، أى المنطق العام، في حين أن الثانى ينحو إلى هدم هذه الفروض العامة وإحلال فروض خاصة في مكانها، أى إنشاء منطق خاص، سواء كان

هذا التفسير صحيحاً أو غير صحيح؛ فهو كلامى الذي يعكس طبيعتى الآن ورغباتى الحاضرة!..

إنه عقيدتى الخاصة في هذه الأيام، لا بالنسبة إلى «المودرنزم» بل بالنسبة إلى نفسى!..

صدقت يا «أندريه» في قولك!..

إنى أصلح أن أكون رياضيّا، وإن أفكارى وتصرفاتى تكاد تسير على طريقة هندسية أو حسابية أو جبرية!..

هذا صحيح!..

ولا أدرى كيف اهتديت إلى ذلك؟.. أنا مع الأسف كذلك.. وهذا ما سوف يهدم كل عمل مسرحى أو فنى أحاول إنشاءه!..

إن إسقاطى الحياة والعواطف كما هى، وكما يراها ويحسها دهماء الناس، وإن ركونى إلى الطريقة الرياضية في تصريف أفكارى وتأملاتى؛ ـ لمصيبة كبرى... وإليك دليلا آخر في قطعة «الحلم» التي أرسلتها إليك!..

إنك ولا شك لم تجد فيها أى صورة تنطبق على الحياة وعواطف الحياة، ولكنك قد وجدتها متمشية مع العقل والمنطق الذي تقتضيه فروض خاصة، أنشأتُها أنا في البداية، تلك هى الرياضة: فرض، وعقل، ومنطق. التصوير الحديث أخرج من حسابه العواطف البشرية، وجعل أساسه الهندسة والمنطق العقلى الواعى وغير الواعى. والموسيقى الحديثة أيضًا... يا للبلاء!..

إنى أحب الفن الحديث وأقلده أحيانًا، وأخشاه وأخشى منه على نفسى!..

حاشية.. أكثِر من رسائلك يا «أندريه»؛ فهى متعتى الوحيدة الآن؛ فأنا محبوس في حجرتى أستعد لامتحان الدكتوراه في أول مارس القادم!..

الرسالة العاشرة

«باريس» ـ شارع «بلبور» في...

عزيزى «أندريه»!..

يجب أن تعلم أنى لم أكن حرّا طليقًا في اختيار الموقف، الذي وقفته منك الشهر الماضى. فهنالك عوامل جعلتنى أتلقى كلامك بكل تحفظ. وأضع نصحى على أساس العقل والحزم لا على أساس الخيال.. وما هو العقل والحزم عندى في ذلك الوقت؟ تلك نقطة الخلاف بيننا، وربما كان سبب الخطأ اعتقادى أن كل ما بك لا يزيد على مجرد «مرض الغربة» وهَمّك على أثر وحدتك الفجائية. فخيل إلىّ أن الدواء هو في تشجيعك على الاستمرار، في تحمل هذه الوحدة، وكان أن ذكرت لك كلمة «إبسن» ـ الرجل القوى هو الرجل الوحيد ـ وتحاشيت أن أثير فيك الذكريات الجميلة، والتحرق على السعادة التي خلفتها في «باريس»... أجل يا «أندريه»، لقد كنت قاسيًا عليك قسوة الطبيب الذي يمنع الماء عن مريضه الظمآن، بحجة الطب والتطبيب. مهما يكن المنطق يبرر هذا الجرم فإن ضميرى غير مقتنع، وقد لعنت نفسى لما سببته لك من ألم... إنك تعرف أنى بطبعى لست ممن يقفون عادة مثل هذه المواقف نحو العواطف!..

إنى أحب الحب، وإنك لتعرف أن للحب مقاما كبيرًا عندى في الحياة!..

في كل حياة... وربما كان الحب هو الشىء الوحيد الجميل الذي نعيش به ومن أجله نحن البشر!..

آه لو كان القدر أعطانى هذه المنحة لحظة واحدة!..

وجعلنى أجد أحداً يحبنى حقيقة مرة واحدة!..

أنا الذي أعتقد طويلا أن عظماء الرجال هم عظماء العواطف،وأقوياء الرجال هم أقوياء العواطف.. إن الذي لا يعرف ولا يستطيع أن يحب إنسانًا ـ لن يعرف ولن يستطيع أن يحب الإنسانية!..

لقد كان آلهة اليونان يحبون ويتألمون، وهم آلهة وهم رمز القوة؛ إن الحب والقوة لا يتعارضان!..

ولماذا لا نقول إنهما في عين الطريق يسيران؟.. ليس عبثًا أن تقوم المسيحية على فكرة حب الله «مريم» وإيجاد «عيسى» ثمرة لهذا الحب!. إن المعانى التي يمكن استخراجها من هذا الرمز لا حد لها.. لست أنا إذن يا «أندريه» الذي يعيب عليك الإسراف في حب زوجك وولدك!..

وبعد.. فقد مضت أيام لم أر خلالها «جرمين» و«جانو»؛ لأنى كما تعلم سجين حجرتى أطالع وأدرس، ثم لسبب أشد وأمر: الإفلاس!..

نعم غَطّانى بردائه الأسود؛ فلم يبق معى غير ثمن شريحة اللحم ـ على حد قولك ـ من أردإ نوع!..

* * *

(حاشية) بعد أن ختمت هذا الخطاب، وصلنى الآن بالبريد السريع رسالة من «جرمين»، داخلها ورقتان ماليتان، بمبلغ عشرين فرنكا ـ على سبيل

الإعانة ـ كما تقول، وهو كل ما استطاعت أن تنقذنى به. وإنى أشكرها، وأسأل الله ألا يوقعها فيما أنا فيه..

الرسالة الحادية عشرة

«باريس» ـ شارع «بلبور» في...

عزيزى «أندريه»!..

وصلنى خطابك ومعه مبلغ الفرنكات الأربعمائة، وإنى أشكرك.. الآن تستطيع أن تطمئن على هدوئى مدة شهر، على شرط ألا تُسمعنى أنت ذكر النقود.. حبذا لو نسيت استعمال هذه الكلمة الملعونة، بعد الآن في رسائلك إلىّ!..

أملى كبير في أن تحقق رجائى، لا تطلب إلىّ بعد اليوم سنتيما، تلك يا «أندريه» هى الطريقة الوحيدة لتصحيح مركزك المالى، ومركزى أنا أيضًا!..

وأنا كذلك لن أطلب عندئذ «سنتيما» من دائنى، سأعطيه ما أعطيتنى اليوم وأقسط الباقى، كما تصنع معى.. وبذلك أضمن لك وأضمن لنفسى تصفية نهائية لهذه الكارثة.. على أنك قد أدهشتنى كل الدهش؛ إذ لا تزال تذكر على سبيل الجد تلك الحكاية القديمة التي أخبرتك بها.. رصيدى في البنك لذلك المبلغ الصغير الذي ربحته ثمنًا لرواية تمثل لى في القاهرة!..

ألأنى واضع همى في أعماق نفسى، لا أجاهر بالشكوى، ولا أتفجع، ولا أتوجع!..

تظن أنى نائم على رصيد في بنك!..

أغاب عنك أيها المحترم أنى أحببت، وأن حبى كان مما يتغذى بالنقود؛ كما تتغذى النار بالوقود!..

إنك تذكر جيداً أن الرصيد قد ذهب في هدايا «النويل» والمطاعم الغالية من «بوكاردى» إلى حان «الأب لويس» والملاهى الفاخرة والمسارح العامرة!..

أنا أيضًا علىّ ديون مثلك وما تسدده لى يدخل في جيوب غيرى.. حالى مثل حالك.. على أنك أنت قد خربتَ وبقى الحب، أما أنا فقد خربتُ وضاع الحب!..

وبعد؛ فإنى الآن جاد في الاستعداد للامتحان في أول مارس، وهى آخر فرصة لى؛ فإذا ضاعت فإنى أقطع الأمل نهائيّا في نوال الدكتوراه؛ ذلك أن البرنامج بعد ذلك يتغير، وبهذا يذهب هباء كل ما أفدت فيما مضى.. ثم إنى لن أستطيع التقدم إلا مرة أخرى بعد مرور عام على الأقل، بالبرنامج الجديد: فأول مارس كما ترى هو التاريخ الفاصل في أمر مستقبلى الدراسى للقانون، وفشلى فيه سوف يكون صدمة كافية أن تقصينى إلى الأبد عن طريق الحقوق!..

فهذا الامتحان هو حدث هام في حياتى، ولا أريد أن أتهاون فيه حتى لا تلقى التبعة علىّ وعلى إرادتى، فأنا أجهد نفسى فوق الطاقة لأضع التبعة على رأس القدر.. فإذا أراد هو أن يصدمنى ليخرجنى من سجن القانون إلى فضاء ـ إلى أى فضاء ـ فتلك إذن إرادته هو لا إرادتى!..

أرجو أن تعيد إلىّ الرواية بالتالى، فأنا لست أدرى ماذا قام برأسى، فجعلنى أرسل إليك شيئًا مثل هذا لم يتم... وحبذا لو أعدتها قبل أن تقرأها، أما إذا كنت قد قرأتها وقضى الأمر، فاكتب إلى برأيك فيما قرأت!..

* * *

(حاشية) فاتنى أن أخبرك أنى ذهبت منذ يومين لمشاهدة «أندروماك» ل «راسين» في الكوميدى فرانسيز!..

وقد خطر لى أن أصطحب «جرمين» ولكننى بحثت في جيبى فلم أجد معى غير ثمن مقعد بالمسرح «في أعلى عليين».. وحتى لو كان معى أجر مقعد آخر بجانبى لخجلت أن أدعو إليه «جرمين».. إن الارتفاع والعلو موضع فخر في كل شيء إلا في المسارح!..

آه يا «أندريه»... إن تمثيل التراجيديا عمل ليس بالهين.. ذلك أن المطلوب من الممثلين ليس مجرد تفسير النصوص، طبقًا للروح الفلسفية والأسطورية التي تنطوى عليها هذه الآثار.. ولكن ذلك طبقًا لأوضاع الفن «البلاستيك» كما عرفه الإغريق... إن كل وقفة فوق المسرح من وقفات ممثل «التراجيديا» يجب أن يكون لها جمالها المثالى في فن النحت!..

كل ممثل أو ممثلة للتراجيديا يجب أن ينتقى من بين أصحاب الأجسام التي تصلح في ذاتها نماذج فنية للمثالين!..

إن الصلة لوثيقة جدًا بين فن النحت وفن تمثيل «التراجيديا» كما هى وثيقة بينه وبين فن الموسيقى!..

إن أصوات ممثلى «التراجيديا» لا تُنْتَقَى عفوا ولا تلقى عفوًا، فليس الإلقاء الطبيعى هو المطلوب في «التراجيديا» كما هو الحال في «الدراما» أو «الكوميديا»، وإنما يجب أن يكون الصوت والحركة في «التراجيديا» ـ كما هو الحال في «الأوبرا» ـ خاضعين قبل كل شيء للأوضاع المعروفة في فنون النحت والموسيقى والعمارة والتصوير؛ لذلك كنت مخطئا في حكمى يوم شاهدت أول مرة في «الكوميدى فرانسيز» ممثلة التراجيديا «سيجون فيبير» والممثل التراجيدى «ألبير لامبير» يلقيان الشعر على نحو

اعتبرته أنا خارجا على الطبيعة.. وهل الشعر ـ بنظمه وقوافيه وأوزانه الموسيقية ـ إلا من الفنون الخارجة على الطبيعة؟.. وما دام هو كذلك فيجب أن يؤدّى متسقًا لا مع الطبيعة، ولكن مع غيره من الفنون التي تتصل بها «التراجيديا»!..

الرسالة الثانية عشرة

«باريس» ـ شارع «بلبور» في...

عزيزى «أندريه»!..

لاشك في أنى لست كريم الخلق بالفطرة والسليقة.. أمس هبط علىّ الشاعر البارناسى في حال يرثى لها؛ فلم أمد له يد المعونة كما ينبغى!..

يجب قبل كل شيء أن تعرف من هو هذا الرجل عندى؟.. إنك لم تره غير مرة واحدة معى في قهوة «الدوم» .. وقد غاظك منا اشتغالنا عنك بمناقشات فنية طويلة، عن الفروق الدقيقة بين المدرسة الإيطالية والمدرسة الفلمنكية في التصوير، فتركتنا ساخراً وأنت تهمس في أذنى: «أين هذا الشيخ المتهدم الذي جاوز الثمانين، من تلك الصبية الحسناء التي تنتظرنى في «الروتوند»؟!».. ولكنك تذكر أن إغراءك في تلك المرة لم يصادف عندى نجاحا!..

إن الجلوس إلى ذلك الشيخ المتهدم كاد ينسينى مفاتن الدنيا؛ لأنه كان يرينى مفاتن الفن.. هو الذي فتح بصرى على جمال الفن «البلاستيك»: من نحت وعمارة وتصوير؛ كما أزاح لى مسيو «هاب» الستار قبل ذلك عن جمال الآداب القديمة، فقرأ «الإلياذة» وبعض مآسى «سوفوكليس» و«إيروبيد» و «إشيل» و«كوميديات أرستوفان».. ثم ترك حبلى على غاربى، وقد تمكن منى داء المعرفة فتركته وانطلقت وحدى ألتهم كل شيء

من قديم وحديث.. وكما حدث مع والدتك يوم كنت أقطن عندها في «كوربفوا»، وتذوقت أول مرة غناءها للأوبرات، فكنت أنتزعها من المطبخ انتزاعا؛ لتذهب إلى البيانو «بفوطتها» تغنى لى المقطوعات الجميلة في «كارمن» و«فاوست» وأجراس «كورتفيل»، إلى أن عرفتُ طريق دار «الأبرا» و«الأوبرا كوميك» ثم قاعات الكونسير «كولون» و«جافو» و«بادلو»... فلم أعد إليها بعد ذلك قط!..

على أن والدتك وكذلك مسيو «هاب» ليسا في حاجة إلى حسن المعاملة، أما ذلك الشاعر المسكين فله شأن آخر.. إنه لا يكاد يجد الآن ما يمسك به رَمَقَه.. إنه كان شاعراً معروفا يوم أخرج مجموعة شعره الكبرى، ولقد أرانى نسخة من الطبعة الأولى صدرت منذ نصف قرن، وقصاصات من نقد ذلك العهد تنعته بأنه من أركان «مذهب البارناس»!. ولكن الشعر لا يستطيع أن يقيم أود إنسان إلى ما بعد الثمانين؛ فهو اليوم بائس حقّا، يعيش في حجرة قذرة «مانسارد»، ويأكل مما تجود به معونة أصدقائه، ولعل أكثرهم قد مات الآن.. وهو قد فرح بى يوم عرضت عليه أن يقودنى إلى المتاحف وآثار الفن، وأن يلازم أحدنا الآخر كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا، على أن أتكفل أثناء ذلك بنفقات غدائه وعشائه وتَبْغه وشرابه، وهو يستحق أكثر من هذا، ولكن ماليتى كما تعلم محدودة، ومع ذلك ما كنت أتركه بعد كل لقاء، دون أن أدس في يده ورقة مالية صغيرة، وأنا أقول في نفسى: اجعل أنك اشتريت بهذا المبلغ «كتاباً».. وما أكثر الكتب التي أبتاعها في كل يوم كما تعلم بالمال المخصص لكسوة الشتاء!. على أن هذا الرجل كان لى خيراً من ألف كتاب؛ إنه كتاب حى متنقل، ما ترك قاعة في متحف اللوفر، أو حديقة فيها تماثيل، أو كاتدرائية أثرية؛ دون أن يذهب بى إليها ويقف بى عليها شارحا مفسراً!..

إنى لم أزل أذكر لقاءنا الأول، وقد أحضر معه إلى القهوة «صرة» صغيرة، سألته عنها دهشا، ففتحها بحرص واعتذار دون أن ينبس.. فإذا هى

مجموعة أثرية صغيرة، عن العصور الحجرية الأولى، أو ما يسمونه «المجاليت» وأخذ يوضح لى المظاهر الأولى لفن العمارة في «المنهير» و«الدولمن»... ذلك أنه أراد أن أبدأ في معرفة الفن مع البداية.. فأرانى تطور النزعة الفنية منذ الإنسان الأول.. وقادنى إلى متحف التاريخ الطبيعى.. ثم إلى دار الكتب.. وهناك رأيت أول مرة تمثال «أفروديت» بغير رأس ولا ذراعين ولا ساقين، ولكن أى جمال؟!..

«لا شيء أجمل من جسد المرأة»!..

تلك هى الصيحة التي لفظناها أمام هذا التمثال.. لقد قلت لصاحبى الشاعر يومئذ إنى قد فهمت المعنى لكتاب «بيير لويس» عن «أفروديت» ... إنه ولا شك قد رأى من تمثالها هذا ما رأينا!..

كيف استطاع ذلك النحات الإغريقى أن يستخرج من ثديين وردفين ـ لأن التمثال ليس أكثر من ذلك ـ جمالا ارتفع إلى القدسية؟!..

«بيير لويس» أراد ذلك أيضًا بلا جدال، فأشاد بجسد المرأة إشادة لم تفهم أحيانًا على الوجه الذي أراد... وهكذا كنا نتحادث ونتناقش أمام كل تمثال أو صورة أو أثر فنى.. ويجرنا الحديث من فن إلى فن، ومن مقارنة إلى مقارنة؛ فالآداب والفنون والعلوم، وكل مظاهر النشاط الذهنى؛ ـ متصل بعضها ببعض إلى حد قد لا يُصَدّق أول وهلة؛ فالمعرفة سائل في إناء، عناصره كل هذه الأشياء.. وأخيرًا جاءت الساعة المحتومة.. لقد تفتحت عيناى وانتهى الأمر.. وعرفتُ كيف أبصر دون حاجة إلى دليل، وعرفت كيف أقرأ في ذلك الباب؛ فهذا «هيبوليت تين» و«جان مارى جويو» و«جرافت ألن» و«جون رسكن» و«سالمون ريناخ» إلخ... وعشرات الكتب الفنية المصورة عن أعمال المصورين والنحاتين.. وهذا هو «اللوفر» و«اللوكسمبورج» ومُتحف «رودان» والمعارض السنوية الدورية.. ثم بعد ذلك كله وهو الأهم... هذا هو تفكيرى الشخصى قد تكوّن بعض الشىء،

ونظرتى الخاصة بدأت تطالبنى بأن أستقل في التأمل والتقدير والاستنتاج.. جاءت اللحظة التي شعرت فيها بوجوب السير بمفردى... وكانت بوادرها ذلك اليوم الذي أدركت فيه أن محادثات ذلك الشاعر لم يعد فيها جديد يثير اهتمامى أو التفاتى.. ولقد شعر المسكين بذلك فكف عن الحديث في الفن، وندرت مقابلاتنا، واقتصر الكلام أثناءها على التافه من أمور الدنيا إلى أن انقطعت، وانصرف كل إلى شأنه، فأصبحت لا أراه إلا إذا اشتدت به ضائقة أرغمته على اقتراض بعض النقود منى... ولقد جاءنى أمس ـ كما قلت لك في الصباح المبكر ـ فاستيقظت ساخطًا متبرمًا، فأبصرته يرتعد من البرد ويقول لى: «إذا لم أجد دثارًا ثقيلا في هذا الشتاء فإنى لن أظل حيّا حتى مطلع الربيع!..

فلم أرد عليه بكلمة، ولكنى أخرجت له ورقة مالية صغيرة وضعتها في كفه؛ كأنه شحاذ، فرفع الشيخ قبعته شكرًا وانصرف صامتًا.. وعدت إلى فراشى، لأستأنف رقادى، فقد سهرت ليلتى أطالع كالمعتاد، ولكن النوم هرب منى!..

لقد تنبهت لما حدث، وتمثل لى سوء فعلى: كيف أصنع معه ذلك؟!..

وكيف أتركه يذهب هكذا بقليل من نقود لن يغنيه شيئًا؟.. وتذكرت هيئته الذليلة ساعة انصرافه صاغرًا مذعنًا لحكم القدر، أو حكمى أنا على الأصح، وكانت آخر لفظة قالها برغم ذلك هى Merci beaucoup خرجت من فمه خافتة مخلصة، لا أثر للمرارة فيها ولا للعتاب.. هنا أدركت أنى لو كنت كريم النفس لألقيت على منكبيه الهزيلين معطفى، بغير تفكير ولا تدبير ولا تردد!..

الرسالة الثالثة عشرة

«باريس» ـ شارع «بلبور» في...

عزيزى «أندريه»!..

لقد لفظ القدر كلمته.. إنه لا يريد لى طريق القانون، لقد رسبت في ثلاث درجات، ولم ترد لجنة المحلّفين جبر النقص، بينما وافقت لجنة أخرى على جبر أربع درجات لأحد أعضاء البعثة.. من هذا ترى أن القدر لم يرد أن يمد يده كما مدها إلى غيرى، لماذا؟.. إياك أن تفهم أنى تهاونت في الدرس!..

لقد كانت إجابتى مرضية جدّا في علم تاريخ المبادئ والمذاهب الاقتصادية: آراء «أرسطو» حتى آراء «كارل ماركس»، وكذلك في علم الاقتصاد السياسى، وكذلك في علم التشريع الصناعى، ولم أهبط إلى حد الرسوب إلا في علم واحد: هو علم «المالية»؛ (ولعل هذا يفسر لك ارتباك ماليتى)؛ إنه علم إجراءات وأرقام لا تستقر في ذاكرتى.. آه للذاكرة يا«أندريه»!..

ما دامت الذاكرة هى المعول عليها إلى حد كبير في الامتحان فلا أمل لى.. أما المطالعة في ذاتها فما أيسرها وما ألذها عندى.. إنى أطالع في اليوم ما لا يقل عادة عن مائة صفحة في مختلف ألوان المعرفة «من أدب وفنون

وفلسفة وتاريخ إلى علوم رياضية وروحانية».. مائة صفحة في اليوم أى ثلاثة آلاف صفحة في الشهر!..

بينما المقرر كله لامتحان الدكتوراه لا يتجاوز ثلاثة آلاف صفحة في العام كله... لو تعلم أنى قرأت مقرر الدكتوراه للقانون وهو عن: «سلطة الكنيسة والدولة» و«نظام العبادات منذ القرن الرابع عشر» و«عصبة الأمم» و«المبادئ البارزة للقانون الدولى» و«أهم اتجاهات قضاء مجلس الدولة» و«الدساتير المكتوبة»؛ ـ قرأت ذلك كله دون أن أتقدم فيه إلى امتحان.. قرأته لمجرد القراءة، وما قراءة مقرر عندى إلى جانب قراءاتى الأخرى؟!..

ألم أخبرك أنى تتبعت كثيراً من دروس «السربون» لغير غاية؛ إلا تتبع آثار الثقافة التي تعنينى.. لقد حضرت كثيراً من محاضرات الاستاذ «برنشفيج» عن «صلات العلم بالدين في القرن السابع»، ومحاضرات «لاكروا» عن الأحوال النفسية للفن، ودروس «روبين» عن المذاهب الأخلاقية والسياسية لأفلاطون «وأرسطو»، ودروس «فوجير» عن «مصادر فن العمارة الإغريقية»، وآثار «أكربول أثينا»، ومحاضرات «شنيدر» عن «ميكل أنجلو وعصره»، ومحاضرات «برونو» عن «الثورة واللغة»، ومحاضرات «لجويس» عن «تاريخ الشعر الإنجليزى» إلخ؟!..

لم يمنعنى الانقطاع عن الحى اللاتينى من متابعة هذه الدراسات، فقد استحضرت كتبها وانغمست في مطالعتها لنفسى، وسرت على دربها وأنا في حُجْرتى!..

إن التحصيل في ذاته للثقافة والتكوين هو لذتى الكبرى الآن. إنما الذي يخيفنى هو الامتحان.. لقد تحقق لدى اليوم أنى لا أصلح بطبعى للتقدم إلى أى امتحان؛ ذلك أن الامتحان يريد منى عكس ما أريد أنا من القراءة. إنى أقرأ لأهضم ما قرأت: أى أحلِّل مواد قراءاتى إلى عناصر تنساب في كيانى

الواعى وغير الواعى.. أما الامتحان فيريد منى أن أحتفظ له بهذه المواد صلبة مفروزة!..

إنى أشعر وأنا أقرأ ـ حتى مُقرّر الدكتوراه في القوانين ـ بأن مَوَادّه قد تفككت واختلطت بمواد أخرى لقراءات أخرى، لا علاقة لها بالقانون، كما تختلط في المعدة المواد الغذائية بعضها ببعض.. وإذا الناتج من هذه المواد المختلطة هو عصير ثقافى، يسرى في دمى المعنوى، فأحس كأن وزنى الفكرى قد ازداد؛ وكأن قدرتى على احتمال التأمل المثمر قد نَمَت.. أما المواد الغذائية في ذاتها فقد هضمت: أى نسيت!..

الامتحان يريد منِّى أن أوقف عملية الهضم، حتى يتحقق الممتحن من وجود المواد صلبة مفروزة داخل المعدة الذهنية!..

لا أريد بذلك أن أعيب نظام الامتحان في ذاته، إنما أنا أعيب نظام بنيتى الفكرية.. إنى سريع الهضم إلى حد قد يعد مرضًا في نظر الممتحن، ومع ذلك لماذا أتقدم لممتحن، ما دمت قد تناولت الغذاء، وأحس حرارة الدم القوى تفور في رأسى، فلماذا أدع الناس يفحصون ما في معدتى؟!..

أتُرانى أدافع عن نفسى، وألتمس الأعذار يا «أندريه»؟!..

لست أدرى.. هأنذا ترانى غير يائس ولا ساخط، وإنى أتقبل الصدمة باسمًا؛ لأنها لا تدل على شيء إلا على قرب وقوع الكارثة العظمى، وتركى أوربا والعودة إلى بلادى!..

لقد لفظ القدر كلمته، ولا جدوى من الإصرار على معارضة القدر.. لكن .. أتراها يا «أندريه» إرادة القدر حقّا أم إرادتى أنا؟.. من الإنصاف أن أخبرك بشىء عجيب: لقد قرأت منذ أسبوعين كتابًا جديدًا لأحد معاونى «فرويد» عن «القدر»، ذكر فيه أننا نحن الذين نصنع أقدارنا بأنفسنا، وأن ما نسميه القدر ليس إلا إرادتنا غير الواعية... ورب حادث صغير، أو حلم من

الأحلام، أو نبوءة من النبوءات، نصدقها فتستقر في أعماقنا، وتعمل سرّا على دفعنا في سبيل تحقيقها. فلقد حدث لى مثل هذا الحادث: كان ذلك آخر ليلة أستعد فيها للامتحان. لقد سهرت إلى الرابعة صباحا، تحت مصباح المكتب الصغير، حتى أتممت مراجعتى الأخيرة، فطويت الأوراق والكتب، ونهضت للنوم، كى أستيقظ نشيطًا للامتحان... وكنت منشرحًا متفائلا مفعما بالأمل لامتلاكى ناصية المقرر، وإذا يدى فجأة تصطدم بالمصباح فيقع مكسوراً على أرض الحجرة، تاركا كل شيء في الظلام.. عند ذلك دب التشاؤم في نفسى، وحدثتنى نفسى بسوء الختام.. في هذه اللحظة فقط كان فشلى قد تقرر، كما تقرر مصير «مكبث» ملكا مجرما، في اللحظة التي آمن فيها بنبوءة الساحرات!..

سواء كانت تلك إرادة القدر أو إرادتى؛ فقد فشلت يا «أندريه»، فارث لى!..

(حاشية) لماذا لم تُعِد إلىّ الرواية بالتالى؟.. إنى دهش لإغفالك خبرها!..

الرسالة الرابعة عشرة

«باريس» ـ في ٢٤ مايو...

«أندريه»!..

بعد بضع ساعات أكون قد فارقت «باريس» المحبوبة.. أسافر هذا المساء بقطار الساعة التاسعة، وغداً ٢٥ مايو تكون الباخرة «راولبندى» قد أقلعت حاملة جثمانى، وإن سئلت عن الروح قل روحه في قاعة كونسير «بلييل»!..

«أندريه»، لست أملك الآن من أمرى شيئًا، إلا الابتسام في وجه القدر الظافر.. ولعل هدوئى راجع إلى توقّعى هذه الكارثة التي تعرف أنى طالما ترقبت ساعتها بذعر وفزع... لقد وقع الأمر المحتوم؛ فما تريد أو أريد؟.. الباقى معلق عليك.. رسائلك يا «أندريه» على الأقل!..

رسائلك تحمل إلىّ في صحرائى نسيم أوربا العظيمة!..

أودعك يا «أندريه» وداعا حارّا، وأودع «جرمين» و«جانو»، وقد رأيتهما أمس للمرة الأخيرة.. أودعكم وأودع فيكم «باريس» الفن والفكر!..

* * *

(حاشية) كنت أريد أن أحدثك عن موسيقى اليوم «ميلهو ـ روسل ـ هونجر ـ سترافنسكى» بمناسبة حفلات هامة قامت بها فرق أجنبية في

باريس في الشهرين الأخيرين: فرق ألمانية بقيادة «مانجلبرج»، وأخرى نمساوية بقيادة «برنوفالتر»!..

إن طَرْق هذه الموضوعات الآن لمما يزيدنى ألما. على أنى أحب أن أقول لك: إن سخطى على «سترافنسكى»، يوم نشر نقده المقذع «لفاجنر» و«بيتهوفن» ـ قد زال بعضه عند سماعى قطعته «تقديس الربيع» مَرّة أخرى!..

إنه على كل حال تعبير قوى لاتجاه جديد في الموسيقى وأغراضها؛ كما يفهمها هذا الروسى الثائر.. نسيت أن أخبرك في رسالتى السابقة أنى شاهدت رواية «هاملت» في الشهر الماضى يمثلها خير ممثل في إيطاليا، حذق هذا الدور، وهو «روجيرو روجيرى»، وقد شاهدتها قبل ذلك من تمثيل «موييسى» وهو خير من قام بهذا الدور عينه في ألمانيا.. إن مجال المقارنة بين الفنيين لمما يحتاج إلى رسالة طويلة.. ويكفينى أن أقول لك إنه لا يوجد مكان في العالم ـ ترى فيه الفنون كلها مجتمعة ـ سوى «باريس»!..

«باريس» هى «فترينة» العالم!..

نعم ... هى الواجهة البلورية التي تُعْرَض خلفها عبقرية الدنيا.. أكرر وداعى لك ولباريس، وأحذرك يا «أندريه» من أن تحرمنى، وأنا بمصر، هذا الاتصال بألوان الفن!..

من الإسكندرية

الرسالة الأولى

«الإسكندرية» في ١٢ يونيو...

عزيزى «أندريه»!..

أحفظ لك في نفسى جميلا يضاف إلى سوابقه: رسالتك الطويلة التي بادرت بإطلاقها في إثرى، فأدركتنى ولما أتم الأسبوع في بلادى!..

إذا أردت أن تعرف مقدار اغتباطى بهذه الرسالة فاذكر أنى ضمختها بعطر فرنسا المأسوف عليها!..

أود لو أكتب إليك بأخبارى ومشاعرى، ولكنى أراها لا تساوى شيئًا كلها.. أهى شيء غير إطراق طويل وابتسامة حزينة، كلها رأفة ورثاء لكل ما يقع أمامى هاهنا، ويأس قاتل، وتحرق دائم، وأيام تجرى كالدموع الباردة، وحياة أتمنى ردها لخالقها إن لم يعطنى حق استعمالها كما أريد!..

هل ترانى مستطيعًا أن أكون شيئًا غير ذلك الآن؟!..

أختم خطابى سريعًا خشية أن يفوت موعد البريد المسافر إلى أوربا هذا الأسبوع، وإنى أترقب رسالة منك؛ فأنت الذي يقدر على إمتاعى بالطريف القيم، أما أنا فما عندى شيء مفيد أقوله لك!..

الرسالة الثانية

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

هأنذا أسرع في الرد على رسالتك راجيًا أن تصلك خلال شهر الراحة؛ كما تقول!..

وكلى أمل أن يجيئنى منك رسالة عاجلة شافية، تربو صفحاتها على العشر!..

فإن أول ما يعنينى معرفته حين استلام رسائلك هو وزنها وحجمها، غير حافل بما تحويه من كلام؛ فأنا في حاجة كما ترى إلى مجرد ثرثرتك.. أما أنت فما أظن بك حاجة إلى أخبارى؛ لأنها راكدة كالماء الراكد، ولو بدا تغير قليل في مجراها لبادرت بإخطارك.. كل ما عندى هو أنى أعيش في جو فكرى ـ إن كان في مصر ما يجوز أن يسمى بالجو الفكرى ـ لا يستطيع أن يعيش فيه مثلى، وأصدقاء الماضى أصبحوا لا يصلحون اليوم لى، فحديثهم ونكاتهم وطريقة قتلهم للوقت لمما يزهدنى في الجلوس إليهم. وإن شئت وصفًا دقيقًا لحالى فهو يتلخص في كلمة واحدة: الوحدة!..

الوحدة في أكمل وأقسى معانيها، أمضى اليوم في القراءة، فإذا جاء الغروب خرجت إلى «كازينو سان استفانو»؛ لأسمع القليل من الموسيقى التي يعزفونها هناك، وحتى في هذا المكان الصاخب باللاهين أحرص على

وحدتى، فأنزوى خلف عمود قرب «الأوركسترا»، متحاشياً نظرات من أعرف؛ حتى لا أكلف نفسى عبء التحية، وهل تتصور أن يكون حالى غير ذلك؟.. لا أكتمك يا «أندريه»!..

إن صرخة خرجت من أعماق قلبى، عندما قرأت في رسالتك خبر حريق قاعة كونسير «بلييل»!..

إن ألمى لهذا الخبر سيتضاعف كلما ذكرت أن هذا الهيكل العظيم هو عندى رمز من رموز الفن في «باريس»!..

اكتب إلىّ كتابا مطولا، إذا كنت تعتقد أن أسمى واجباتك نحوى هو التفضل على ساكن الصحراء ببعض نفحات أوربا العاطرة!..

الرسالة الثالثة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

تعبت من كل شيء، ومن كل إنسان، ويئست من أن بلداً كمصر يصبح في يوم قريب ذا حياة فكرية. لا حياة في مصر لمن يعيش للفكر!..

لا يشغل عقلى الساعة غير شيء واحد، ولا يلذ لى إلا أمر واحد: تحطيم كل شيء... تحطيم كل شيء هام، وأبدأ بمستقبلى، الذي يلوح لى أنه بدأ يتفتح عن وظيفة في القضاء حبذا لو استطعت تحطيمه؛ لأهيم على وجهى في بلاد الأرض، لا تحدنى غاية، ولا يوقفنى غرض!..

وصلتنى اليوم بطاقة البريد المصورة من «لِيل»، فغبطتك.. إنك الآن في شمال أوربا.. ياللحظ الجميل!..

أشعر بأنى لا أستطيع أن أكتب إليك أكثر من ذلك، وحرصى على ميعاد قيام البريد يدفعنى إلى ختم هذه الرسالة عاجلا.. وبذلك تصلك منى كلمة على أى حال... أريد أن أكتب إلى «جَرمين»، فأنا شديد الشوق إليها وإلى الصغير الجميل «جانو»!..

الرسالة الرابعة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

الحق أنى راض عنك كل الرضا، شاكر لك كل هذه العناية، ولا أكتمك أنى ما كنت أصدق ـ وأنا أغادر باريس ـ أن اتصالك بى سوف يكون بهذا المقدار!..

لقد كنت أحسبك ستنصرف عنى إلى حالك، فلا تكتب إلىّ إلا بقدر ما يقطع شكى في وجودك... أما الآن فقد ثبت لدى ـ أمام رسائلك المتتالية ـ أنك لا تكتب إلىّ أداءً لواجب.. أتراك تحس أن أخبارك وأحوالك لها شأن عندى؟.. هى الحقيقة يا «أندريه»!..

ما من إنسان يتتبع الآن أحوالك مثلى!..

حدثنى عن نفسك كثيرًا وعما حولك.. أريدأن أحدثك عن آلامى، ولكنى لا أنسى سخريتك ولذعك وهزأك بكل جِد.. هذا القلم في يدك، أتبين دماء «فولتير» تجرى فيه أحيانًا؛ فينبئنى قلبى بأنك لن تكتب إلىّ ردّا يجعلنى أطمئن إليك، فلأوثر الصمت، ولا أطلب إليك أنت الكلام.. حدثنى أنت عما عندك في الشاطئ الآخر، آه.. الشاطئ الآخر... المائج بأضواء الحياة الفكرية!..

الرسالة الخامسة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

مضى شهران وأنا أنتظر خطابا منك لا يأتى، وبدأت أعتقد أنه لن يأتى أبدًا.. ومع ذلك، ثق بأنى لم أصب عليك اللعنات أو أنى فعلت، ولكنى أقسمت إنى على استعداد لشراء خطاب منك بالنقود!..

نعم إنه لتمر بى لحظات أخرج من جيبى ورقة مالية أعلم أنك في أشد الحاجة إليها، وأضعها أمامى ثمنًا لرسالة منك ذات أربع صفحات... أما بعد، فإن مسألة «أكل العيش» ما زالت عقدة العقد، وأمرها أصعب مما تتصور... ماذا تريدنى أن أكون: وكيل نيابة؟ .. تاجرًا؟.. مزارعًا؟.. ثق بأنى في أى مهنة خلقها الله لن أكون سوى شيء واحد: أنا بطبيعتى ونقصى!..

ومعنى ذلك أنى سوف أكون وكيل نيابة أو تاجرًا أو مزارعا على طريقتى. وهنا المصيبة والفضيحة!..

إنك تعلم من غير شك أن لى منطقًا خاصّا يشط بى أحيانًا عما اعتاده الناس؛فإذا أنا في واد والناس في واد ينظرون إلىّ ويقولون: إما أنه أبله، وإما أنه فطن.. لا أذكر في حياتى أن الناس حكمت علىّ غير هذين الحكمين المتناقضين: ففريق ـ ومنه والدى ـ يقول إنى أبله، وفريق ـ ومنه والدتى ـ يقول: إنى فطن. ولم أسمع طول عمرى حكما وسطا بين هذا وذاك.. على أن

هذا كله لا يهمنى ولا ينبغى أن يهمك.. مستقبلى حتى الآن شيء غامض، بل لعله لم يكتب بعد في «اللوح المحفوظ».. أذكر قولك لى مرة في حديقة «اللوكسمبورج»: إن الله لم يخلقنى، وإنما هو الشيطان أراد أن يخلق طرازًا جديدًا من الآدميين، أو «موديل» من الإنسان، يضارب به الطراز الشائع المعروف.. فجاء خلقه عجيب البناء غريب التركيب، به أثر من عبقرية الشيطان، ولكن به نقصًا ينم عن تخبط في شئون الخلق والإبداع... ومع ذلك ـ حتى على فرض أن الله هو الذي خلقنى لا الشيطان ـ فإنه كان لسوء حظى يضجر ويتبرم كلما جاءه «جبريل» بلوحى المحفوظ؛ ليعين خطوات حياتى؛ فقد كان يصرخ في وجه الملَك الأمين قائلا: «اذهب عنى الآن!».. فيقول جبريل خاشعًا: «ولكن.. يا إله السموات والأرض، المدعو «توفيق الحكيم» ولد وشَبّ ونما وكاد يدنو من الثلاثين، وهو لم يزل يدب على الأرض ويعيش فيها بالمصادفة.. وكلما جئت إليك بلوحه لأجل التعيين..»، فيسمع كأن الصوت العلوى يصيح به... «قلت لك اذهب عنى الآن، ولا تشغلنى بهذا المخلوق!..

هكذا أعيش بغير مصير.. حياتى فيما يخيل إلىّ هى في يد المصادفة.. والمصادفة غير قديرة على صنع حياة محبوكة الأطراف.. آه .. إن حياتى مفككة، كالقصة المفككة، أو الهيكل المزعزع الأركان!..

أنا الذي لا يحب في الفن غير قوة البناء، وما يتبعه من قوة التركيز.. وهذا هو سر عنايتى بالحوار التمثيلى في الأدب!..

نعم ذلك ما أسميه عاطفة ال Architecture هذا الإحساس الهندسى الذي من نتائجه: الحساب ووضع الكلام بمقدار، والاعتماد على الخطوط الكبرى التي تحدث التأثير... إنى مهندس Architecte أدبى، هذا كل شيء، من ذلك الطراز الذي يشيد معبدًا عاريًا: أعمدة ضخمة متناسقة، ولا شيء غير ذلك!..

ما أشد حاجتى إلى حياة قائمة على أعمدة راسخة؛ كالمعبد الضخم الجميل!..

إنى معبد يتصاعد من جوفه لا بخار الإيمان، بل بخار الشك القلق!..

إنى أتألم ألمًا لا يراه أحد، إذ لا يظهر على وجهى شيء غير هدوء الرضا.. هنالك دودة دائمة الوخز دائبة النخر في قلب هادئ المظهر رائع المنظر كالكمثرى الذهبية.. هنالك قلوب يسكنها الألم كأنه عبادة.. حياتى كلها ليست سوى قارب ثَمِل.. لهذا يخيّل إلىّ أنى صَديق «رامبو» الإنسان قبل الشاعر، ولهذا أيضًا كنت صديق «إيفان» الروسى الثائر!..

أما أنت يا «أندريه»؟... إن لك قلبًا من غير شك.. ولكن ينقصك الألم. إذا انصهر قلبك يوما انصهارًا كافيًا، وانتشر حوله الدخان؛ فإن هنالك بين ذلك الدخان تستطيع أن ترى الشبح الحقيقى لصديقك الشرقى!..

إنى الآن أنتظر الشتاء، ولعله يأتى بجديد، ولعل الله في هذه المرة يلتفت إلى وجودى، غير ضجر ولا متبرم، فيعين طريقًا لحياتى.. إن الإنتاج الفكرى يا «أندريه» ليرتبط إلى حد ما بطريقة عيش الكاتب، ويتلون أحيانًا بلون حياته اليومية... لذلك ترانى أنتظر. على أنى في هذه الفترة أتعزى عن نفسى بك وبنشاطك، وأتوجه ببصرى إليك في أمل؛ وأتبعك في مطالعاتك الليلية في رغبة ورجاء!..

(حاشية) بعد أن ختمت هذا الخطاب تأملت قليلا في أمر ذلك «اللوح المحفوظ» الذي تُسَطّر فيه مصايرنا.. ومما لا شك فيه أن لكل نفس خُلِقَت قصة يجب أن تعيشها على هذه الأرض.. ومما لا شك فيه أيضًا أن كل قصة يجب أن تكون جديدة بعض الجدة، وأن تختلف عن غيرها بعض الاختلاف!..

تصور إذن كم من القصص قد أُلِّف ويجب أن يؤلّف لملايين الملايين من البشر.. يخيل إلىّ أن هنالك في السماء مَلَكا فنانًا منقطعًا لتأليف قصص

المواليد قبل خروجهم إلى الحياة... هذا الملَك الروائى المخصّص لهذا العمل العسير، يجب أن يكون واسع الخيال إلى حد مخيف!..

والويل له إذا نضب خياله مرة.. أخشى مع ذلك أن يكون خياله قد نضب وهو يمسك بالقلم ليسطِّر قصة حياتى!..

الرسالة السادسة

«الإسكندرية» في..

عزيزى: «أندريه»!..

إنى آخذ عليك تقصيرك في الكتابة إلىّ، وأوجه نظرك مرة أخرى إلى أن رسالة تكتبها إلىّ لا تشغلك كثيراً، ما دمتَ تجد وقتًا يتسع لمغازلة الحِسان، ولو أنى - بينى وبين نفسى - أعلم أن هذه المغازلات قديمة التاريخ، ولا أحسبك قد نسيت قهوة «الدوم» والأمريكية ذات العيون التي تشبه في زرقتها ماء بحيرات الجنة!..

على أنى أغتفر لك عن طيب خاطر كل إهمال، إذا كنت مشغول الوقت حقيقة - بعد عمل المصنع المرهق - بالقراءة والمعرفة بما فيها الموسيقى وألوان الفنون جميعًا.. ذلك الداء الذي تقول إنى رميتُك به!..

لم يخب ظنى... إنك قد سمعت في هذين الشهرين من الموسيقى خير ما يمكن سماعه؛ فإنى أعلم، وقد مكثت في «باريس» شهرَىْ مايو ويونيو، من بعض الأعوام... أن ذروة الموسم الموسيقى هى في هذين الشهرين؛ فإن خير الفِرَق تتلاقى في «باريس» في ذلك الوقت قبل تفرقها في المصايف.. لقد سمعت أنا أيضًا سانفونية «ماهلر» التي تحدثنى عنها، و«نشيد الأرض» وهو إحدى روائع صحائفها؛ كما سمعت قطعة «الأفراح» العجيبة ل «سترافنسكى»، وكذلك قصيدته السانفونية «تقديس الربيع»، وفيها هى

أيضًا «نشيد الأرض»، ولكنها الأرض الوثنية، لا أرض «ماهلر» التي تتصاعد منها الرُّوح الدينية العميقة، غير أنك أحسن حظّا منى بسماعك Lotte Schoene المغنية العظيمة وفرق «الكورس» الشهيرة التي وفدت إلى باريس هذا العام.. فأنا لا أمل لى هنا في سماع هذا الضرب من الموسيقى، أعنى الصوت الآدمى المنفرد أو المجتمع.. فأنا أستطيع على كل حال أن أجد في الموسم الموسيقى «لكازينو سان استفانو» ـ تحت قيادة إيطالى متواضع يدعى «بوفومى» ـ كل برامج الموسيقى الآلية تقريبًا، حتى «إندانت» «لماهلر» سمعته ببرنامج الأمس، ولكن من المحال أن آمل في سماع messe أو requiem أو على الأقل السانفونية التاسعة «لبيتهوفن»؛ فمشاهير المغنين والعازفين لا يأتون هنا بالسهولة التي يذهبون بها إلى باريس، لذلك أرسلت إلى ألمانيا في طلب «أسطوانات» لهذا النوع الذي لن أطمع في سماعه هنا... وقد كلفنى ذلك نقودًا وأى نقود!..

وبعد... فأشكر لك حديثك المسهب عن الموسيقى؛ فأنت ولاشك تعلم أن الحديث عنها هو خير ما تَطرب له أذناى!..

الرسالة السابعة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

نعم، إنك ارتفعت حتى قمة الجبل، وقمت بتلك الرحلة الصاعدة الجريئة، وكان من حسن حظى أن أرافقك. وكان من سوء حظى أن ألقى نظرة قبلك إلى مهبط السفح، وأن ألفت نظرك الطامح الجنونى إلى هول بعدنا عن سطح الأرض. وها أنت ذا تعترف أنك بعد تلاوة رسائلى اضطررت إلى النظر فيما أقول، فوجدت نفسك محلقاً حقيقة على ارتفاع مخيف، وأحسست لحظة الدوار.. إلى هنا أوافقك، وأوافقك أيضاً على قولك إنى أخشى ما تخشاه على رأسك من هذا الدوار، هو عندما تهبط إلى مستوى زملائك في المصنع!..

نعم، إنى أتوقع لك دواراً قاسياً ساعة النزول يتناسب مع ذلك الارتفاع... أما قولك آسفاً إنك بدأت تشعر بالوحدة الروحية تنسج أبرادها حولك، فهو ما لا أوافقك عليه، أو لستُ متصلاً بك دائماً؟.. بماذا تفسر كتابتى المستمرة إليك؟... تقول إنه كان ينبغى ـ في لوح قدرك ـ أن يأتى فتى من الشرق ليسبغ بخياله رداء الأحلام على عالَم الواقع الذي كنت تعيش فيه!..

أنا أيضاً كان ينبغى لى أن أرى جمال الواقع الناصع في جوار عقلك الأوربى المستقيم!..

إن هزة التصادم بين الشرق والغرب، هى وحدها التي تفتح الأعين المغلقة في الشرق والغرب.. إن في تلاقينا لَمَعنى أوسع من كل معنى شخصى أو فردى، إن فيه قوة الرمز، ما من مرة احتك فيها الشرق بالغرب إلا خرج من احتكاكهما ضوء أنار العالم، وما من مرة تلاقى فيها وجه الشرق بوجه الغرب، ونظر أحدهما في عين الآخر، إلا أبصر جمال نفسه، كأنه ينظر في مرآة.. أليس من العجيب يا «أندريه» أنك لم تعجب بكل ما عندكم من آثار الفن والموسيقى إلا بعد أن توطدت بيننا الصلة؟... لن أنسى سخريتك بى وبخيالى وميولى، في أول عهود تلاقينا.. لقد جعلت تهدم كل الأسس التي بنيت عليها حياتى... لقد جعلت تجرد صديقك الشرقى من كل صفة طيبة، حتى صفة الفنان التي كان المسكين يعتز بها وقتذاك على نحو مضحك، لابسًا لها لبوسها من معطف أسود وقبعة عريضة سوداء!..

لم تترك له أملا واحداً يعيش به، بعد أن هدمته بلا رحمة. قلتَ له ذات مرة: «والآن اذهب وألق بنفسك في نهر السين، إذ لا قيمة لمثلك، ولا فائدة ترجى منه في الحياة!..

ألا تذكر؟... ومع ذلك شيء عجيب: لم يؤثر في نفسى كثيراً هذا الكلام، وابتسمت له، ورددت عليه ردّا لطيفًا أُقِرُّكَ به بعض الشىء، ألا تذكر؟.. ذلك أنى في ذلك الوقت كنت أدرك أنك لم تفهم بعد روح الشرق!..

ثم شيء آخر: هو أنى في ذلك الوقت كنت أقابل المأسوف عليه «إيفان»، ذلك الروسى الذي كان يدعم إيمانى بنفسى وبالشرق كلما نالت منى بعض كلماتك!..

ولكنى عدت بعد ذلك إلى الشرق، عدت إلى مصر يا «أندريه»؛ فأصابنى بادئ الأمر ذهول، ذهول عنك وعن كل شيء، كمن وقع من السحاب حقيقة، ثم أخذت أتصفح الوجوه والأشياء حولى!..

يا لها من حقيقة مؤلمة!..

رأيت نفسى في شبه عالم نائم، لقد شعرت بما قد يشعر به من يهبط سطح القمر الأجرد المعتم.. أنت أيضًا نقلت إلىّ داءك يا«أندريه».. فجعلتنى أبصر الواقع المؤلم بعين الواقع!..

لقد عشت بضعة شهور بغير نفْس ولا إدراك، أحاول فهم السخفاء والجهلاء.. وأتمنى لو أستطيع أن أُسَرّ بعشرتهم، وأن أصغى إلى أحاديثهم!..

لقد قطعت عهدًا على نفسى عند ذاك ألا أتحدث في غير التافه من الأمور، إلى أن وصلنى منك خطاب ذات يوم، تؤنبنى فيه على هذا الخمول، وهذا الجمود، فكان أثره في نفسى عميقًا.. لقد عاد إلىّ الذكاء والإدراك... وإذا عقلى الذي كاد يخبو بأفيون الشرق يضىء من جديد!..

وصحوت لحظة أفكر وأتأمل، وانتهى بى الأمر إلى أن النور يأتينى من الشاطئ الآخر، وأن الأمل معلق على شخص مثلك يهز لى المصباح من الجهة الأخرى!..

الرسالة الثامنة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

إنى في حاجة إلى حديثك.. تكلم في أى شيء أو في لا شيء.. أسمعنى صوتك، وأشبعنى ثرثرة. واملأ لى صفحات.. يكفى أن تلقى على الورق خطوطًا فتكون لها قيمة.. قيمة نقدية. على الأقل عندى!..

ولو أنى أعلم أنك اليوم لست محتاجًا إلى نقودى، فقد صلح حالك، وصرت ممن يسير في الحياة بنظام واطمئنان.. نعم إن لمجرد الثرثرة قيمة نقدية أحيانًا، فإنى أذكر يوم قرأت «de prefondis» «لأوسكار وايلد» أنى صحت: هذا كاتب له قلم يبول ذهبًا!..

أجل، حسب مثله أن يقول للقلم اكتب، دون قياد من العقل والتفكير؛ كما يرخى الفارس للجواد العنان!..

إن من الكتاب يا «أندريه» من تجد فيه هذه المزية العجيبة أو الموهبة الفريدة: إنه معفى من انتقاء موضوع أو تخير قضية؛ لأن عنده القدرة على أن يجعل من مجرد كلامه المرسل إرسالا أشياء عالية القيمة؛ ذلك أن روحه وحدها هى كل الفن والأدب، وأن سر قوته في تلك السجية الغنية والفطرة الخصبة.. مثل هؤلاء لا ينبغى أن تقول لهم: اكتبوا فيما هو منتج أو مفيد.. إنما ينبغى أن ننتظر فقط كل ما يخرج من مداد أقلامهم، كما

ننتظر العسل من النحل دون أن نخبره أن في عمله شفاء للناس. مازلت تغمز أحيانًا غمزات خفيفة لما أحمله لك من تقدير، فتقول لى في كل لحظة: «ما بالك تحشرنى في الأدب وتفسد حياة رجل المصنع؟!..

كلا يا «أندريه»... إن الأدب لا ينافى حياة المصنع، لأن الأدب هو الحياة، أو التعبير عن الحياة... إنه الحياة كلها التي تحوى في جوفها المصنع وغير المصنع.. ولقد كان «إيفان» ـ رحمه الله ـ عاملا وفيلسوفا.. أنت أيضًا صاحب ذوق وفهم.. إياك أن تشك في ذلك!..

مرة أخرى أقول لك: «استمع إلى قلبك، فالقلب هو أدق آلة في جسدنا تسجل الصدق..». وبعد .. هل قرأت كتاب «جوزيف ديلتى» عن «نابليون» ما رأيك فيه؟.. لقد جاءنى في البرقيات العامة خبر وقع على رأسى كالصاعقة: هو موت «بول سوديه» كبير نقاد عصرنا الحاضر في فرنسا، يا للأسف!..

لقد كنا ننتظر مقالاته في «الطان»؛ كما يُنتظَر الحُكْمُ النهائى الفاصل.. فيما يختلف فيه النقد والنقاد!..

أختم هذه الرسالة سريعًا؛ لأن موعد البريد قد أزف، وسأحدثك في رسالتى التالية عن «كونسرتو» سمعته في «الكازينو» هو مضحك للغاية، إذ كان فيه عازف «فرتيوز».. سأجتهد في أن أصف لك ما وقع!..

الرسالة التاسعة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

وأخيراً أعلنوا في البرامج وعلى الحيطان عن عازف «فرتيوز» يوقع أحد كونسيرتات «باجانينى»، فذهبت كالمعتاد بل بنفس أكثر إنعاشاً وأشد فرحا، فلقد ظفرنا آخر الأمر «بكونسرتو» و«بفرتيوز».. ووقف المايسترو «بونومى» ونفش شعره بيده قبل أن يومئ إلى فرقته بعصاه، ثم التفت إلى يمين ثم إلى يسار؛ منتظراً قدوم العازف العظيم. وذكرتنى هذه الحركة بمثيلاتها، حين كان رئيس «الأوركسترا» ينتظر دخول عازف شهير؛ مثل «تيبو» أو «هوبرمان» أو عازفة مجيدة مثل «إريكا مورينى».. لقد دخل على نفسى الوهم والابتهاج، بهذا التباطؤ المقصود، وحسبت أن العازف الداخل قد أبطأت به سيارة «الرولز» لحدوث خلل في الطريق، ولكن التفاتة منى إلى باب «التواليت» هدمت كل هذا الخيال؛ فقد أبصرت رجلا يتحشر في «ردنجوت» ـ من المؤكد أنها ليست له ـ وعلى صدره رباط رقبة «فاقع» اللون، لا يتفق مع سواد الرداء، وعلى عينيه منظار غليظ لا يضعه غير سماسرة القضايا ووكلاء المحامين وهو واقف يمشط شعره على عجل بمُشط من الخشب «الخَشرنفش»، فلما رضى عن «قيافته» التي تكبد فيها ما تكبد ظهر مسرعاً إلى المنصة، وانحنى للجمهور كما ينحنى مشاهير العازفين، ثم التفت إلى «بونومى» ونظر إليه من خلف منظاره السميك

نظرة من يقول له: «الأمر سائر على ما يرام؟..»، فرد عليه الرئيس بابتسامة، لكن في شيء من التعالى، وحوّل نظره بالعصا المرفوعة إلى الجوقة، فارتبت في هذه النظرات، واستدرت نحو المنصة، فإذا بى أرى مكان «السوليست» خالياً، فأدركت الحقيقة: هذا العازف الذي أعلنوا عنه ليس سوى العازف الأول للفرقة هيّئوه ومَوّهوه وأدخلوه علينا كأنه عازف «فرتيوز»!..

على أنى مع كل هذا أقول: لا بأس!..

إن «بونومى» رئيس أوركسترا ضرورة، ولكنه على كل حال رئيس أوركسترا!..

حقيقة أنه يؤدى عمله كما يستطيع وتستطيع له مواهبه الخالية من الشّعر والرقة والدقة؛ فهو لو أدى قطعة مثل قطعة «السحب» ل «كلود ديبوسى» لأسقط على رءوسنا أحجاراً من السماء.. إنه لا يدرك معنى لذلك الذي تسمونه معشر الفرنسيين nuance وكثير من «بيتهوفن» العميق مغلق عليه.. ولعل «المارش» وال ellegro forte هو كل ما يمكن لمثله أن يؤديه.. وحتى هذه ما دامت فيها عواطف ـ على الأقل عند «بيتهوفن» ـ فهو يسقط منها العاطفة على الرغم منه، فلا نسمع منها غير الدوى المادى، ولا نلمس إلا الهيكل الخارجى!..

أين هذا ممن أسمعونا «الغبار الموسيقى» La Poussière musicale على حد تعبير «هونجر»؟.. وأين هذا ممن فسروا «موزار» و«فاجنر» تفسيرات تعتبر في ذاتها خلقاً جديداً؟.. لقد عرفتُ طريقة «برونو فالتر» مجدد «موزارت»، وكان بودى لو أعرف طريقة «فان هوسلن» مجدد «فاجنر»، وهو من يقولون عنه إنه حوّل ال Grondements souterrains التي تملأ أعمال «فاجنر» إلى موسيقى صافية نقية؛ كأنها موسيقى «موزار». وسواء كان «فاجنر» حقّا بهذا

الصفاء النفسى الذي كان عليه الطفل الإلهى، وهو ما أشك فيه، وسواء كان يريد «فاجنر» ذلك ويوافق عليه لو كان حيّا، أو لا يريد؛ فإن المحاولة في ذاتها تستحق المشاهدة، لنقول بعدئذ: هل نفضل «فاجنر» الحقيقى، أو «فاجنر» المدخول عليه؟.. إنها على كل حال «بدعة العصر» فيما أرى.. ذلك الذي يسمونه «تجديد الشباب» للآثار القديمة.. أهو تأثير العلم الحديث وحلمه الدائم بإعادة الشباب إلى الغدد المنهوكة والجسم الهرم؟.. إن آثار الذهن قد بدأت تتأثر بهذه النظريات، وإن كلمة «تجديد الشباب» للمؤلّفات القديمة تجدها على لسان كثيرين اليوم.. تذكر عمل الشاعر الفرنسى «كوكتو» في تجديد أعمال شاعر الإغريق «سوفوكليس»!..

أى خطر على تراث الأقدمين لو تمكنت من الناس مثل هذه الأفكار، إلا أن يكون في ذلك العمل حياة للقديم من خلال الإطار الجديد، فهو إذن عملية إنقاذ وبعث وتجميل.. وعلى ذكر العلم الحديث وأثره في مسائل الفن والفكر، أخبرك بأمر كتاب عجيب هو كتاب Ulysses لجيمس جويس.. لقد كان لهذا الكتاب صيت رددت صداه جدران صالونات الأدب بباريس، حتى قبل أن يترجم إلى الفرنسية، وقد عُدّ من قرأه من أدباء الفرنسيين ـ ونادر من قرأه إذ ذاك ـ أديباً ذواقة لا تخفى عليه خافية، شأن كل عمل يَتَعهد بترويجه وإذاعته من يسمونهم Les Snobs وهم لا يذيعون إلا كل عمل معجز.. والمعجز في هذا الكتاب أنه يبلغ نحو ٩٠٠ صفحة من الورق الكبير والحروف الصغيرة، وكله إملال وإضجار؛ فهم واثقون بأن الكثرة الغالبة سوف تعجز عن مطالعة هذا الكتاب.. غير أن هذا ليس معناه خلو الكتاب من القيمة الأدبية.. إن التطوير إلى حد الإضجار والإملال قد سبق أن قاسيناه في كتب مثل «الحرب والسلام» ل «تولستوى» وخرجنا مع ذلك فائزين.. على أن فكرة «جيمس جويس» في هذه القصة الطويلة التي ترتكز على «المنولوج الداخلى» هى أن يترك بطله يتكلم بكل ما يرد على خاطره، ويخرج كل ما يخالج نفسه: كل فكرة فاضلة أو سافلة، خيرة أو شريرة،

تافهة أو قيمة؛ لابد أن تُسَجّل؛ فهو يريد أن يقول لنا: إن «البسيكولوجية» الصحيحة هى ألا نتخير أشياء، وننبذ أشياء مما يدور في نفوس الأشخاص... إنما يجب أن نثبت كل ما في نفوسهم، حتى مجرد الخواطر الفجائية الطارئة.. وهو عمل لا يستقيم معه بالضرورة بناء القصة، ولا يسمح به مجال الصفحات المعقول.. لذلك ضرب المؤلف الإنجليزى بالبناء الروائى عرض الحائط، ثم لم يبال أن يبلغ عدد صفحاته ما شاءت له الحماقات التي تمر بخاطر بطله، في ساعة من الساعات.. وهى ليست حماقة واحدة وليست حماقتين... ولكنها عدد لا ينتهى، ولا يمكن أن ينتهى.. وهل تنتهى السخافات التي تمر في لحظة برأس إنسان؟.. قد كنت أظن أن مثل هذا الكتاب يظهر ثم يمر في سلام، ولكن المروع في الأمر هو أن يصبح فيما أرى «بدعة العصر»؛ فها هو ذا كتاب «لألدس هكسلى» «point contre point» ترى فيه أحد الأشخاص يبدو متبرما بمعشوقته، وقد خبت جذوة حبه، ويريد لتلك الصلة بينهما حسن الختام!..

هذا حسن، ولكنه يحادث نفسه، فإذا هذه النفس لا تحدثه في الحب وحده، ولا في تبكيت الضمير، ولا في التريث والشفقة، بل ولا حتى في الشعر والفن، بل تحدثه في الفلسفة، وفي الاقتصاد، وفي الاشتراكية، ثم بعد ذلك ترتل أشعاراً «لشكسبير»!..

وإذا استمرت هذه النفس في حديثها على هذا النحو، فإن المؤلف لن يستطيع قطع هذا الحديث قبل ملء جزأين أو ثلاثة أجزاء.. إنى لست ساخطًا على هذا النوع من التأليف كل السخط، فإنى مدرك لقيمة مثل هؤلاء الروائيين، مستطيع أن أقارنهم بالروس من بعض الوجوه، فإن دقة التحليل والنزول إلى أعماق النفس والإفاضة في تلوين الأشخاص، والإحاطة بكل ما ينبض في قلوبهم من خوالج تكونت أو ما زالت في دور التكوين ـ كل ذلك مشترك بين هؤلاء الإنجليز، وبين الروس العظام مع هذا الفارق: أن ما عند الروس من نزعة صوفية mystique يقابله ما عند الإنجليز من نزعة

انتقادية satirique غير أنى لا أظن مطلقاً أن نظرة الروس للسيكولوجية الروائية بلغت هذا الحد الذي بلغه الإنجليز اليوم.. إنما هى بدعة تولدت بتأثير علم النفس الحديث.. إنك قد تجد عند الروس شيئاً من هذا «المنولوج الداخلى»، ولكنهم لم يضعوا فيه إلا كلاما مختاراً متسقاً مع بناء القصة وجوهر الفكرة، أما أن يلقى فيه كل شاردة وواردة ـ كأنه طبق خضراوات منوعة ـ فهو ما لم يصنعوه.. إن «السَّلَطة» الروسية la salade russe من ابتداع الروس حقّا، ولكنهم لم يدخلوها على مائدة الفن الروائى الروسى!..

أرجو منك يا «أندريه» أن ترتاب قليلا في أحكامى الأدبية والفنية؛ فأنا كما تعلم أحب بطبعى البناء السليم في كل خَلْق، ولا شيء يرضى غريزتى الفنية مثل الصحة في البناء، سواء كان هذا البناء لهيكل آدمى أو فنى.. وقوة البناء لا تتمثل فنيّا أبرز تمثيل إلا في فن العمارة، وفي السانفونية الموسيقية، وفي القصة التمثيلية.. ولعلك مستطيع تعليل إيثارى للقصة التمثيلية، فهى ـ كما ترى ـ ألزم وأقرب إلى دقة البناء من القصة المروية.. وقد تستطيع أخيراً أن تعلل حبى لصحة بناء الجسد؛ فنحن لا نحب أحيانًا إلا ما ليس في يدنا.. نعم، إن الفن عندى بنيان جميل.. لذلك لا تنتظر منى أن أحب هذه الطريقة الحديثة في «المنولوج الداخلى» .. قد أحبها على شريطة أن تخرج قصة كهذه من دائرة الفن لندخلها في دائرة العلم، وأن نطلق على مثل هذه القصة اسم «سجل أو ملف نفسية فلان».. إن الفن هو كما قال «هكسلى» نفسه في ذات الرواية: ليس هو الحقيقة وليس هو الواقع؛ بل شيء آخر: إنه الحقيقة مقطرة ومصفاة كيمياويّا.. هذا صحيح!..

وإذا كان الماء يصفى ويقطر للناس في معمل كيميائى، فإن الحقيقة أيضًا تصفى وتقطر للناس في معمل المؤلف الروائى.. وهذا المعمل هو: الفن!..

نعم؛ إن الفن ليس الطبيعة ولا الحقيقة، إنما هو تقطير الطبيعة والحقيقة من خلال «إنبيق» الفنان!..

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تتجه الرواية الحديثة إلى إيراد الحقيقة بواسطة سجل، يُرْصَد فيه ما حدث في الدقيقة والثانية، داخل نفس فلان، كما تسجّل الأرصاد الجوية؟.. إنى على كل حال لست نادما على قراءتى هذه القصة!..

فلقد جعلَتْنى أستكشف في نفسى القدرة على المطالعة في الإنجليزية مباشرة.. نعم إن تركى هذه اللغة أعواما طوالا، لم يؤثر إلا في قدرتى على المحادثة بها.. لماذا إذن أنتظر ترجمة مؤلفات «برنارد شو» إلى الفرنسية، وأنا مستطيع فهمه في لغته الأصلية؟.. إنه الكسل، ولا شيء غير ذلك... إنى كسلان بالطبع.. ولكنى الآن أقرأ بالفعل «برنارد شو» في الإنجليزية، وأتذوق سخريته ولذعه وفكاهته، وأستعذب أسلوبه السهل السلس ذا الروح والرائحة.. على ذكر الأدب الإنجليزى أحب أن أقول لك أمرًا استلفت نظرى منذ غرقت في دراسة هذا الأدب.. إنه أدب مغامرات، ولا يجب أن يطلق عليه غير هذا الوصف: مغامرات بأوسع معانيها وأجملها وأشرفها؛ فأعمال «ولتر رالى» و«سكوت» و«دانيال دفو» و«روبنسون كروسو» و«روبرت لويس ستيفنسون» و«جزيرة الكنز» هى مغامرات بحرية.. وأعمال «ديكنز» و«جالسورثى» هى مغامرات اجتماعية.. وأعمال «شكسبير» و«بيرون» مغامرات نفسية إنسانية. وأعمال «ماكولى» و«كارليل» مغامرات تاريخية. وأعمال «ويلز» في قصصه العلمى و«برنارد شو» خصوصًا في Back to Methuselah ليست سوى مغامرات ذهنية. إن الأدب الإنجليزى مهما تشرحه تجد روحه وجوهره في كلمة «المغامرة». لعل هذه الجزيرة المنعزلة قد طَبَعتْ نفوس أهلها بهذا الطابع الغريب: حب السفر عبر البحار بحثًا عن المجهول: بحار الأرض أو بحار المجتمع، أو بحار الماضى، أو بحار النفس، أو بحار العقل.. هذا لا تجده في الأدب الفرنسى مثلا. إنه أدب الشكل

La forme في جماله الساحر، أدب المحادثات اللبقة النبيلة، أدب التفكير الرائق الهادئ، أدب التعبير الرائع، والمنطق البارع، هو أدب الوطن الفرنسى، والصالون الفرنسى، والنصيحة الفرنسية، القائلة: إن باريس هى عاصمة الكون، ولا شيء وراء باريس.. بالاختصار: هو أدب الاستقرار، لا أدب الضرب في البحار!..

وبعد.. تقول لى: إنك سرت في جنازة المأسوف عليه «بول سوديه»، وإنك مررت مع الجمع حول التابوت، وتناولت قمقما فضيّا حركته في الهواء بعلامة الصلب، ونضحت به الجثمان، ثم سلمته لمن خلفك في الصف.. ثم تقول إنك كدت تضحك.. فتسخط عليك الناس؛ لأنك تذكرتنى فجأة وأنا في مثل هذا الموقف يوم تشييعى جنازة زوج بنت مدام شارل، وما وقع لى بالتمام من أشياء، تثير الابتسام.. آه.. لا تُذَكِّرنى يا «أندريه» ... لقد كان حقّا يوما محرجا .. لكنه انتهى!..

الرسالة العاشرة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

اليوم الخميس، ولم تصلنا رسالة الخميس. وقد عودتنا ذلك ووعدتنا به، هلا رأيت «بول سوديه» ومواظبته على إرسال مقالات الأربعاء، لجريدة «الوقت» عشرات الأعوام بانتظام، لم ينقطع في خلالها إلا لموتين: موت زوجته، وموته هو!..

وهل تظن أنك أقل من «بول سوديه» في «وقتى» أنا؟ .. على أنى أسأل لك عمراً أطول من عمره، وأعطيك أجراً أكثر من الأجر الذي كانت تعطيه إياه جريدة «الطان» لو كنت تقدر قيمة الود!..

تستطيع أن تقول إنى أعيش طول الأسبوع على رسالتك، فإذا كنت تريد أن تحرمنى غذائى الأسبوعى فأنت وشأنك.. وبعد.. فلنتحدث في أى شيء: قرأت مقال «فرنان فندريم» في «بول سوديه» وهو خصمه المعروف في المناضلات الأدبية. أى جبن وأى نذالة؟.. مقال لو أنه كتبه وتجرأ على نشره في حياة الناقد العظيم لما استطاع الإقامة بعدها في فرنسا يوماً واحداً.. ولكنه الآن يقول ما يريد؛ لأن الميت لا يستطيع جواباً.. لقد جرد «سوديه» من كل حسنة، وألصق به من النقص ما يخرجه عن وظيفة ناقد.. ولكن أعجب ما جاء في مقاله عن «بول سوديه» قوله: إن الجانب الفنى la

technique في الأعمال الأدبية كان يفلت منه دائمًا؛ لأنه لم يمارس بنفسه التأليف من حيث هو خَلْق فنى!..

فما قول «فاندريم» هذا في فلاسفة الألمان؛ ممن نقدوا الفن من «عمّانويل كانت» إلى «فردريك نيتشه»؟.. وما قوله في Les esthéticiens الذين شرحوا لنا ونقدوا فن «فيدياس» و«بوليكليت» و«براكسيتيل» وهم لم يصنعوا قط تمثالا من الطين أو العجين؟.. وما قوله في «جول لمتر» و«سارسى» و«تين» وقد قضوا حياتهم ينقدون فنونا لم يمارسوها قط بأنفسهم؟.. حتى العرب ونقاد الشعر العربى في آدابنا؛ مثل «الأصمعى» و«حماد عجرد» لم يمارسوا هذا الفن مع روايتهم لكل ما قيل فيه.. وإنى لأذكر قول أحد نقاد العرب هؤلاء، وقد سألوه ـ كما سأل فاندريم بول سوديه ـ: لماذا لا يقرض الشعر؟.. فأجاب: أنا كالمِسَنّ يشحذ ولا يقطع، ولكن «فاندريم» يريد أن يقطع أوصال جثة خصمه وكفى! إنى لم أزل أطالع رسالتك الماضية في إعجاب.. إن فيها أشياء أقرؤها ببطء، فتؤثر في نفسى تأثيراً شديداً؛ ذلك أنها تجعلنى أتصور أنى مازلت أقيم في حجرتى بشارع «بلبور» واأسفاه!..

يخيل إلىّ أنى نسيت رقم الحجرة في الطابق الخامس، أظنها كانت رقم ٤٨، لأنها «هى» كانت تقطن الحجرة رقم ٣٨.. إنى إن نسيت رقم حجرتى فلن أنسى مطلقاً رقم حجرتها.. أما الببغاء آه يا «أندريه»!..

ترى أين هو الآن؟.. أو لم يزل يحمل اسمى كما كان؟.. فيظل بذلك اسمى يردّد صداه في «باريس»... على الأقل حتى يموت الببغاء!..

إنى أعرف أن هذا الطائر طويل العمر!..

نحن ـ معشر المصريين ـ نفكر دائمًا في تخليد أسمائنا، ولقد اتخذ جدى الأهرام لهذا الغرض، ولكنى أنا اكتفيت باتخاذ ببغاء.. على قدر مالى واستطاعتى.. ألا ترى أنى مصرى بالدم والوراثة؟.. أندريه!..

اكتب إلىّ كثيراً.. ذكرنى بحجرتى في شارع «بلبور». ترى من يقطنها الآن؟.. أحد العمال ولا شك أو إحدى العاملات؛ فهذا حى عمال وعاملات.. ومن يدرى؟ .. فقد يكون من سكانها اليوم محبان عاشقان... أو زوجان سعيدان. أما أنا مع الأسف فلم أعرف في هذه الحجرة غير حياة شبه زوجية فاترة مع «ساشا شوارتز»، وحياة حب مع «إيما دوران»، لم يدم هناؤه طويلا!..

الرسالة الحادية عشرة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

تسألنى من هى «ساشا شوارتز»؟... عجبًا!..

ألا تذكرها؟.. أو لم أقص عليك قصتها من قبل؟.. أهان أمرها علىّ بهذا القدر الذي لم يتم، ولا يمكن أن يتم؟!..

حدث ذلك يا سيدى في مساء يوم جميل جلست فيه مع «مسيو هاب» إلى مائدة مَشْرَب صغير bistro في «مونمارتر». وكنا نتحدث في أمر حوار صغير كنت قد كتبته، ودفعت به إليه ليرى رأيه فيه، فرآه خفيف الروح قوى التركيب سلسًا سائغًا، يستلب لب القارئ استلابًا... وقال لى: «إنى أراك قد اعتصرت «موليير» و«بومارشيه» و«ماريفو» اعتصاراً!..»..

ففرحت بقوله هذا كثيراً، وطلبت كأسًا أخرى من «البرتو».. وما كدت أتناول منها جرعة حتى دخلت المَشْرَبَ غادة ذات جسم، ذكّرنى بتمثال «أفروديت». وكان في صحبتها شاب برنزى اللون جميل الطلعة كأنه «أبوللون»... ولست أدرى أسكرت من «البرتو»، أم من إطراء صاحبى، أم من روعة هذه الغادة؟... كل ما أذكر أنى تمايلت على «مسيو هاب» صائحًا: «ناد الجرسون واطلب سكينا!..

فقال دهشًا «سكينا؟!..

تصنع به ماذا!..

فقلت: «أقتل نفسى عند أقدام هذه المرأة؛ حبّا وجنونًا وغراما!..

فالتفت «هاب» إلى المرأة ثم إلى صاحبها وقال لى: صدقت، ولكنها كما ترى ذات رفيق، وأى رفيق... لا أمل لك أيها الصديق.. إذا أصررت على السكين فإنى أنادى لك الجرسون!..

ولبثنا ساعة ننظر إليها ونتحسر...! ثم نهضنا وانصرفنا كلٌّ إلى شأنه. ومضت أيام قلائل وإذا مسيو «هاب» في إثرى يبحث عنى في مظانى، حتى عثر بى، فبادرنى صائحًا: أين أنت؟.. أين أنت أيها الرجل السعيد؟!..

افرح بسرعة فإن عندى لك خبرًا سارّا.. إنها لك منذ اليوم خالصة مُخَلّصَة!..

فلم أفهم مراده بادئ الأمر، وقلت له: عمن تتكلم؟.. فقال: عنها هى... عن تلك المرأة. فقلت له: أى امرأة؟.. فضاق صدره بى: عجبًا لك!..

أى امرأة؟!..

المرأة التي رأيتها في المشرب منذ أيام!..

فتذكرت كل شيء، وصحت: حقّا!..حقّا.. أخبرنى ما خبرها!..

فقال: يا للحظ عندما يواتى الإنسان!..

لقد كنت بهذا المشرب البارحة، وإذا بى ألمح امرأة جالسة إلى مائدة بجوارى أمامها «بوك» من البيرة لم تمسسه شفتاها، وقد أخفت وجهها في منديلها، وطفقت تبكى بكاء مرّا.. فعجبتُ لأمرها، ولبثت أرقبها حتى تبينت آخر الأمر أنها صاحبتنا «أفروديت»، فتحينت منها الفرصة وحادثتها، ولم

أزل بها حتى اطمأنت إلىّ، وكشفت لى عن بلائها: صاحبها البرنزى اللون وهو إسبانى يدعى «جارسيا»؛ قد هرب إلى بلاده، وهجرها بلا مأوى ولا نقود ولا معين.. وهى أجنبية هى الأخرى ـ ألمانية أو روسية لست أدرى على التحقيق ـ اسمها «ساشا شوارتز» وهى تجيد الفرنسية، وقد كانت تعمل «سكرتيرة» في إحدى وكالات السفر، فالتقت بهذا الشاب الإسبانى فاستلب لبها وأخرجها من عملها؛ وختم قصته معها على هذا النحو. وليس من اليسير أن تجد سريعًا عملا يقيها شر الجوع، فهى لا ترى في رأسها غير أفق حالك، تبدو منه فكرة الانتحار؛ كأنها شمس سوداء!..

فبادرتها صائحا مرتاعا: «تموتين؟!..

أنت؟.. مهلا يا سيدتى مهلا؟.. تموتين وعندى شخص يموت فيك حبّا وهيامًا وغرامًا!..

فنظرت إلىّ بعينين كلهما دَهَش واستفهام، فأخبرتها بخبرك وضربت لها موعداً مساء اليوم بذلك المشرب لأقدمك إليها.. كل أمل هذه المرأة الآن هو أن تجد لها مأوى ومُعِينًا، ولاشك عندى في أنك مستطيع أن تحقق لها هذا الأمل..». تصور ذهولى يا «أندريه» وأنا أسمع من مسيو «هاب» كل هذا.. لقد حسبته يمزح، ولكن الموعد حانت ساعته، فلم أر فائدة في اللجاج، فجلست معه أنتظر، وإذا بالفعل... أبصر لدهشتى «أفروديت» تدخل علينا في حال كسيرة، وقد أفسدت الدموع أهدابها، وأنساها الحزن الالتفات إلى هندامها، فنهض «هاب» لاستقبالها؛ ونهضت أنا أيضًا كالخجل المأخوذ، وحياها صاحبى ألطف تحية، وقال لها باسمًا وهو يقدمنى إليها: «كنت تريدين الانتحار يا آنستى، فها هو ذا شيء أهون قليلا من الانتحار..». فنظرت إلىّ الفتاة بابتسامة وديعة، فيها أثر الحزن وفيها أيضًا الاستسلام؛ وكأن كل شيء فيها ينطق: «ليس الآن أوان الفحص والفرز والاختيار».. وتركنا «هاب»، وقد رأى أن مهمته قد انتهت، فلبثنا وحدنا لحظة صامتين،

لا أدرى ماذا أقول.. إلى أن سألتها آخر الأمر عن أمتعتها، فقالت لى إنها مودعة عند صديقة لها متزوجة، أضافتها الليالى السابقة.. ولم يعد من اللائق أن تفرض ضيافتها على أسرة أكثر من ذلك. وكانت تلك الأسرة تقطن ضواحى «باريس» والوقت ليل، فرأينا أن نرجئ طلب الأمتعة إلى الصباح، وذهبت بالغادة الحزينة إلى أحد المطاعم فتعشينا، وأنا أحاول إضحاكها والتسرية عنها.. ثم قدمتها إلى مسرح تعرض فيه رواية «فودفيل» مفرحة، فانتعشت قليلا، وضحكت مع الضاحكين، وخرجنا وقد أنست إلىّ بعض الشىء، وبدأت الألفة تتوطد بيننا.. وذهبت بها إلى حجرتى بشارع «بلبور» فسرّت كثيراً بالمطبخ الصغير الملحق بالحجرة، وما فيه من أدوات لشى اللحم وجهاز لموقد يشعل بالغاز. وسألتنى أن أعيرها تلك الليلة «بيجاما» مما أرتديه للنوم. ففعلت، وتشاغلت بالنظر في كتبى المكدسة فوق المكتب.. ولك أن تصدق أيها الخبيث «أندريه» أو لا تصدق، فوالله لم أحاول اختلاس النظر إليها وهى تخلع ثيابها، ولا أذكر أين فَعَلَتْ ذلك.. هل خلف خزانة الثياب أو في المطبخ؟ وكل ما أذكر أنها طلعت علىّ فجأة وهى مرتدية «البيجاما» ويكاد نهداها البارزان يفتقان الرداء، فوقع الكتاب من يدى، فابتسمتْ.. ابتسمتْ «أفروديت»، وكانت ليلة لا تنسى.. وبزغ الصبح، وفتحت عينى وقد راحت السكرة، وجاءت الفكرة.. ونظرت إلى تلك المرأة النائمة في فراشى، وقلت لنفسى: ماذا أنا صانع بها؟.. اليوم الأحد، وهو يوم زيارتى المعتادة لمتحف اللوفر.. هل أصحبها؟.. إنها لن تطيق المكث في هذا المتحف ست أو سبع ساعات؛ كما أفعل، وإذا احتملت فإنها لن تستطيع الوقوف ساعة أمام الصورة الواحدة؛ كما أصنع، وإذا فعلت فإنها لن تسكت عن بعض التعليقات السخيفة التي تبدد جو تأملاتى، وتفسد علىّ نظام تفكيرى.. ثم إنها ستغير برنامج حياتى!..

إنى الآن آكل وأعمل وقتما أريد وحيثما أريد، إن حياتى غير المقيدة بمكان ولا بزمان ولا بإنسان ستصبح منذ اليوم داخل إطار محدود من صنع

هذه المرأة. إنها عبء وتبعة، إنى لم أخلق لأسير في الحياة وامرأة معلّقة بذراعى!..

ونهضت من فراشى على عجل، ارتديت ثيابى، وكتبت كلمة تركتها لها فوق المكتب خلاصتها: «إنى رجل بوهيمى، لا يصلح لرعايتك، والسهر على راحتك؛ فأرجو أن تخلينى من تبعة إسعادك!..

فإنى لست لهذه النعمة بأهل..»!..

وألقيت عليها نظرة أخيرة، وهى في نومها العميق المطمئن.. وانصرفت .. ذهبتُ توًا إلى مسيو «هاب»، وأخبرته بما حدث فكاد يصعق.. فهدّأت من روعه وضاحكته قائلا: «لا تنس أنى رجل شرقى متوحش!..

المرأة عندى يجب أن تحبس في «الحريم» أو على الأقل لا يكون لها دخل كبير في حياتى.. إذا أرادت «ساشا» أن تتخذ من مسكنى مأوى لها، فلا مانع لدى.. على شرط أن تتركنى حرّا.. فلا تخرج معى.. ولا تشعرنى بأن لها في حياتى وجودًا!..

ففهم «هاب» مرادى وقال: «لا بأس!..

أظنها ترضى بهذا الشرط... ولكن نفقات طعامها؟..». فقلت له: «في مقدورى أن أعطيها كل يوم ثمانية فرنكات أو تسعة(1)». فقال «هاب»: «لغدائها وعشائها معًا!..

قلت «نعم» فقال: «اجعلها عشرة فرنكات»!..

فقبلت، وتعهد هو بأن يلقاها في ذلك اليوم؛ ليعرض عليها هذا الوضع الجديد. وانصرفت أنا إلى «متحف اللوفر»، فغرقت طول يومى في قاعة الفن الإغريقى متنقلا بين تماثيل «بالاس» و«أبولون» و«فينوس» في أوضاعها المختلفة.. آه يا «أندريه»... إن فن الإغريق هو تجميل الطبيعة

إلى حدّ إشعارها بنقصها... لكأنهم يريدون أن يقولوا للطبيعة: انظرى... كان ينبغى أن تصنعى هكذا!..

ومضى أكثر النهار، فدلفت إلى قاعة الفن المصرى القديم... ولا يفصل بينها وبين قاعة الإغريق ـ كما تعلم ـ غير باب صغير. وما كدت أتخطى العتبة حتى شعرت بفرق عجيب... إنه عالم آخر... إن فن مصر القديمة هو تحدٍّ صارخ للطبيعة؛ لكأنهم يقولون للطبيعة: «انظرى... لا شأن لنا بك... ولا بمخلوقاتك... إننا نستطيع من مخيِّلتنا ومن تفكيرنا أن نخرج مخلوقات أخرى غريبة عجيبة لم تخطر لك على بال..». على أن الذي استلفت نظرى في هذا الفن، هو أن أسلوبه قد أوحى إلى أسلوب الفن الحديث في العصر الحاضر إلى حد كبير.. وخرجت من «اللوفر» وأنا أقلب في رأسى الملاحظات والمقارنات... وذهبت إلى مطعم صغير أتناول عشائى... ثم عدت إلى مسكنى فوجدت المسكينة «ساشا» قد غادرته تاركة لى هذه الكلمة فوق المكتب: «سيدى!..

إنك لا تريدنى، وهذا هو كل ما في الأمر. لربما خيبت ظنك. ولكنى أبحث عبثًا، وأستعرض في ذاكرتى كل ما حدث أمس، والمساء والليل؛ علّنى أجد اللحظة التي أكون قد خيبت ظنك فيها، وليس في مقدورى سؤالك أو الاستفسار منك؛ فلقد ذهبت تاركا لى تلك الكلمة التي تدعونى فيها ـ على نحو ظاهر ـ إلى الرحيل!..

إذن .. فلم يبق لى إلا أن أسير في طريقى.. أود على كل حال لو حدثتك مرة أخرى!..

فإذا لم تر بأسًا في ذلك فإنى أرجو منك أن تبعث إلى كلمة بعنوان صديقتى المسطور في أعلى خطابى».. في الحق يا «أندريه» أنى تألمت وندمت؛ لقد كان تصرفى خاليًا من الرفق والرحمة، ولبثت أفكر وأنا أجيل النظر في حجرتى الخالية.. إن وجود هذه المرأة ها هنا ليس عِبْئًا بالقدر

الذي تَصَوَّرْتُه.. إنها كانت تملأ المكان على كل حال بعطرها النسائى، فتغير قليلا من هذا الجو المغبّر بتراب الكتب... ما أجملها عند ما كانت مرتدية ثوب النوم الذي أعرتها إياه البارحة!!..

ليتها تعود، ما أوحش الليل بدون امرأة!..

وقضيتُ ليلة مضطربة، وفي اليوم التالى ذهبت إليها في مسكن صديقتها.. وحملتها هى وأمتعتها في سيارة، وعدت بها إلى حجرتى بشارع «بلبور». وأخبرتنى في الطريق أنها التقت مسيو «هاب» في اليوم السابق «وأنه أخبرها بالشرط والنظام الجديد، فعاهدَتْه على القيام بتنفيذه على أدق وجه!..

وهكذا استقر بنا الحال أيامًا: وكان لحجرتى مفتاحان استبقيت واحدًا وأعطيتها الآخر؛ فإذا كان الصباح تركت لها فوق مكتبى الفرنكات العشرة، ثم انطلقت حرّا طول يومى، فلا أرى لها وجهًا إلا ليلاً.. هنالك أحيان يحلو لى أن ألزم حجرتى؛ لأكتب الساعات الطوال.. فما كانت تنبس بحرف، بل كانت تقرأ، تقرأ كل ما يقع تحت يدها من كتبى المكدسة.. لقد عجبتُ أول الأمر لكثرة مطالعتها ولإجادتها لغات عدة.. إلى أن قصّت علىّ نشأتها.. وعلمتُ أنها ابنة مدير إحدى شركات السكك الحديدية في ألمانيا... فلما انهارت الشركة بعد الحرب بانهيار «المارك» والنظام الاقتصادى الألمانى؛ انهارت أسرتها أيضًا: فمات أبوها، وتشرد إخوتها وأخواتها في أرجاء أوربا!..

ونزحت هى إلى «فرنسا» حيث وجدت ذلك العمل الذي شغلته في وكالة السفر، حتى فقدته هو الآخر جريًا وراء قلبها!..

إنها بوهيمية هى الأخرى من الطراز الأول!..

على أنها لم تفهمنى أيضًا؛ كما كان ينبغى، فإنه لم يمض على نظامنا هذا عشرة أيام، حتى نسيت مراميه، وأغراضه.. وإذا هى تترك لى فوق مكتبى هذه

الكلمة: «عزيزى!..

إنك تتغيب طويلا.. لكأنك تتعمد الهرب من حجرتك، ومن وجودى، على الرغم من الجهد الذي أبذله حتى لا أضايقك أو أثقل عليك!..

وحدتك هذه تكاد تشعرنى بأنها مظهر استياء منى.. وإنى لأبحث عبثًا عن السبب يا صديقى العزيز!..

إنى لأرجوك من كل قلبى أن تخبرنى عما لا يعجبك منى!..

قلها بصراحة.. فربما كان في الإمكان رتق رباط الثقة والاطمئنان الذي يصل أحدنا بالآخر!..

هذه الثقة. وهذا الاطمئنان الذي تخلو منه نفسى في هذه اللحظة؛ ربما كنت مخطئة في هذه التقديرات!..

ربما كنت مسرفة في الوهم، فأخذت شغلك بعملك على أنه شغل عنى!..

مهما يكن من أمر فطمئنى بكلمة!..

إنى حزينة جدّا.. إنى خارجة أستنشق بعض الهواء، وأرفه عن نفسى قليلا... ولكنى أرجو أن تكون على ثقة من أن إخلاصى هو لك وباق لديك!..

الواقع يا «أندريه» أنى عجبت لهذا الخطاب!..

إن الإخلاص أو الحب، أو أى عاطفة من هذا النوع لم تكن داخلة ضمن الشرط بأى حال!..

وإنى لأعلم أن «ساشا» لم تحبنى على الإطلاق!..

حقيقة هى لم تذكر لى شيئًا عن صاحبها الإسبانى منذ مجيئها، ولكن ليس معنى ذلك أنها نسيته!..

لقد كانت تقرأ ذات ليلة في الفراش كعادتها قبل النوم، وكنت أنا أكتب على مكتبى أو أطالع؛ وإذا بى أسمع صوت عبرات مكتومة، فرفعت عينى فوجدتها تحاول إخفاء بكائها، فسألتها عما بها، فكانت صريحة وقالت: إن يدها وقعت تلك الليلة على «دون كيشوت» وأقاصيص نموذجية من أعمال «سرفانتز» فغمرها في ذكريات .. ثم قالت وهى تمسح دموعها بيدها: «لم أكن أعلم أنى أجد هنا كتبًا إسبانية»، فقلت لها: «عجبًا!..

أوَ كنت تريدين أن أتجاهل الأدب الإسبانى، وأستبعد مؤلفات «سرفانتز»، ومسرحيات «كالدرون»، وكوميديات «لوب دى فيجا»؛ لأن لك خليلا إسبانيًا؟..»، أجل يا «أندريه»... لم يكن بيننا حب قط.. ولا أذكر أننا تبادلنا كلمة واحدة فيها حرارة العاطفة الملتهبة!..

هذا شيء لا يمكن أن يحدث مع امرأة موجودة... موجودة أمامى في كل وقت!..

إن اللحظة الوحيدة التي أحببتها فيها حقًا هى ساعة دخولها المَشْرَب أول مرة مع صاحبها الإسبانى!..

إنها كانت رائعة؛ لأنها كانت شيئًا في السماء، مثل كوكب يتلألأ، لا يمكن أن تمتد إليه يدى، ولكن هذا الكوكب ما لبث أن وقع في كفى، فإذا هو مصباح ضئيل. يحتاج إلى يدى القاصرة لتملأه بالزيت، وتحميه من التحطم والسقوط!..

إنى لم أزل أحب «إيما» لأنها شيء بعيد.. غير موجود في كل وقت، يصل إلىّ غناؤها من نافذتها؛ كأنه شعاع يأتينى من بعيد!..

إنها أعطتنى بعض أسرار نفسها وجسمها.. ولكنها مع ذلك ليست في يدى؛ شأنها شأن الطبيعة التي تعطينا وتستعصى علينا.. إن الحب قصة لا يجب أن تنتهى.. قصة «إيما» مستمرة لا تريد أن تنتهى.. إن الحب مسألة رياضية لم

تحلّ.. إن جوهر الحب مثل جوهر الوجود، لابد أن يكون فيه ذلك الذي يسمونه «المجهول» أو «المطلق». إن حمى «الحب» عندى هى نوع من حمى «المعرفة» واستكشاف المجهول والجرى وراء المطلق.. ماذا يكون حال الوجود لو أن الله قذف في وجوهنا ـ نحن الآدميين ـ بتلك المعرفة أو ذلك المطلق الذي نقضى حياتنا نجرى وراءه؟.. لا أستطيع تصور الحياة يومئذ؛ إنها ولا شك لو بقيت بعد ذلك لصارت شيئًا خاليًا من كل جمال وفكر وعاطفة؛ فكل ما نسميه جمالا وفكرًا وشعورًا، ليس إلا قبسات النور التي تخرج أثناء جهادنا وكدِّنا وجرينا خلف المطلق والمجهول!..

لو أن «إيما» قبلت أن تترك حجرتها كما عرضت عليها وتأتى لتقطن معى في حجرتى لكان حظها حظ «ساشا». هنا الفرق بين «الغرام» و«الزوجية»!..

إنى أدرك الآن لماذا يفتر الحب الملتهب بين الخليلين إذا تزوجا، وقد يعود إلى سابق اشتعاله إذا عادا خليلين، لكل منهما حياته المنفصلة.. إن الانفصال هو الذي يغرى بالاتصال.. لهذا كله كانت حياة «ساشا» معى أقرب إلى الحياة الزوجية الخالية من أى عاطفة قوية؛ فما معنى خطابها هذا الذي كتبته اليوم؟.. أتراها أنوثة المرأة، تنسى كل شرط وكل اتفاق، ولا تذكر إلا الرغبة في أن تشغل قلب الرجل؟.. وماذا أنا قائل لها ما دمت أوقن بأنها لا تحبنى؟!..

وطويت رسالتها وطرحتها جانبًا، ومضيت في عملى ومطالعاتى.. إلى أن عادت ومعها نسخة من صحيفة يومية، وأخبرتنى مبتهجة بأنها وجدت لنفسها عملا.. فلقد قرأت إعلانًا في الجريدة لأحد المسارح الراقصة، يطلب فتيات لهن أجسام جميلة تصلح لرقص المجموعة.. فتقدمتْ في الحال، وكان نصيبها الفوز؛ فما من شك في أن جسمها يعد خير نموذج لجسم المرأة الجميل!..

على أن المسرح لن يعطيها بادئ الأمر أكثر من خمسمائة من الفرنكات في الشهر. وقالت لى وهى تخلع قبعتها. وتنثر في الهواد شعرها الأشقر: «لا أعرف كيف أشكرك على معونتك لى، ولكنى أرجو منذ الغد أن تكف عن منحى الفرنكات العشرة، على أنى لم أزل بعد في حاجة إلى مشاركتك حجرتك، لأن ربحى ـ كما ترى ـ لا يسمح لى حتى الآن باقتناء مسكن خاص!..

فقلت لها: «يا عزيزتى!..الآن فهمت سر خطابك!..

أحسبت أنى أهرب منك، استياء وتبرمًا وضيقًا بعبء العشرة الفرنكات؟!..

فخرجت تبحثين عن عمل؟.. على كل حال، أنت حرة في شئون حياتك، وإنى دائمًا عند تعهدى بأن أكون في معونتك وخدمتك على الوجه الذي تريدين!..

واستمرت حياتنا المشتركة تجرى في مجرى هادئ، فكلانا له شغل منفصل عن الآخر، وحياة مخالفة لحياة الآخر.. لا يجمعنا إلا الليل في فراش واحد، ولم يخطر على بالى حتى مجرد التفكير في نوع عملينا أو المقارنة بين حياتى وحياتها، منذ ذلك اليوم.. فأنا طالب قانون وفلسفة وعلم وفن وأدب، وهى راقصة في مسرح راقص، من طراز «الفولى برجير» «أو المولان روج»... لست أذكر اسمه، ولعلى لم أسألها عنه، ولابد أنها أخبرتنى باسمه وبخبره، فلم أحفل بذلك، ولم أع ما قالت، ولم أنصرف بذهنى عما كنت أقرؤه وقتئذ أو أفكر فيه.. ولم أشعر أنا بتغيير في نظامنا، سوى انقطاعى عن منحها أى نقود!..

لقد حدث تغيير في نظام حياتها هى؛ فهى تعود إلى الحجرة كل ليلة بعد التمثيل في آخر قطار من قطارات «المترو»، تعود «بالماكياج» مطلية من رأسها إلى قدميها بالأحمر والأبيض؟.. فليس في مسرحها ولا في بيتنا حمام، فتدس جسمها المطلى في الفراش على هذه الصورة.. لقد انزعجت حقّا أول

الأمر، يوم نهضت في الصباح، فأبصرت جسمى أنا الآخر قد نضح بتلك الألوان.. ولكن انزعاجى لم يقف عند هذا الحد؛إنها تعلمت التدخين بالطبع، وأنا أكره رائحة الدخان.. فالويل لى عندما كنت آوى إلى فراشى ذات ليلة مبكراً.. إنها كانت تعود آخر الليل والسيجارة في فمها، وتسير في الحجرة على أطراف قدميها حتى لا توقظنى، وتطرح معطفها الثقيل عن جسمها العارى ـ إلا من «مايوه » الرقص ـ وتذهب إلى المطبخ فتأتى بشطيرة خبز داخلها سردينة؛ فهى جائعة، وتجذب من بين كتبى قصة «لفلوبير» أو«بلزاك» أو تمثيلية «لبورتوريش»أو «لينورمان»... فهى مقيمة على عادة القراءة قبل النوم.. وتضىء المصباح الكهربائى على رأس السرير، ثم ترفع عنى الغطاء برفق وحذر.. وتدخل الفراش إلى جا نبى، بسردينها ودخانها وكتابها وأحمرها وأبيضها، وتحسب بعد ذلك كله أنها حرصت على عدم إيقاظى وإزعاجى.. لطالما نهضت لأنهرها وأطلب إليها أن تبطل هذا كله وتنام... فكانت تستعطفنى وتستمهلنى حتى تتم قراءة القصة!..

وكنت أقول«تتمين قراءة القصة؟.. الليلة؟!..

الواقع أنها كانت سريعة القراءة إلى حد كان يدهشنى. إنها تتم قراءة القصة التمثيلية في ساعة واحدة، وأنا الذي أقرؤها في يومين أو ثلاثة، ولكن هنالك فرقًا هائلا بين قراءتى وقراءتها!..

إنها تقرأ للحكاية في ذاتها.. أما أنا فلا تعنينى حكاية الكاتب، بل يعنينى فنه، وسر صناعته، وطريقة أسلوبه في البناء، وخلق الأشخاص، ونسج الجو، وإحداث التأثير!..

إنى أعيد أحيانا قراءة الفصل الواحد، بل الصفحة الواحدة مرات... لكم أعدت قراءة «موليير»، لا لشىء غير دراسة طريقته في تقديم الأشخاص، ورسم أخلاقهم!..

تلك الطريقة التي تختلف أحيانًا، وتتغير في كل رواية من رواياته... لذلك لم تكن قراءة «ساشا» تصلح أساسًا حتى للمناقشة ومبادلة الرأى.. وما كنت أجنى منها إلا ذلك المصباح المسلط على رأسى، والدخان الذي يضيق به صدرى في ذلك الهزيع الأخير من الليل... إنها كانت أحيانًا تخشى غضبى فتقفز في مطالعتها فصلا أو فصلين وتصل إلى خاتمة الكتاب سريعًا، ثم تطفئ النور، وتجذب الغطاء فوقها جذبة تتركنى أنا في العراء، فلا أتمالك نفسى، وأقرصها قرصة تصرخ منها في جوف الليل!..

ويأتى النهار، فتستيقظ في الضحى، وأبقى أنا في السرير كسَلا.. وتسرع هى إلى ثياب الخروج، فترتديها لتذهب إلى المسرح في ميعاد التجارب (البروفات). لبثنا معًا في هذه الحياة ثلاثة أشهر، لم يختل نظامها أو قل «فوضاها» قيد شعرة.. حتى تعودتُ احتمالها، فندر غضبى أو ضجرى، وبدأت هى تهتم بما أعمل بعض الاهتمام؛ فكانت تسألنى أن أطلعها على ما أكتب من حوار أو قصص... فما كنت أقبل ذلك.. لست أدرى لماذا؟... أما هى فكانت تسألنى رأيى في بعض الحركات الجديدة لرقصها، فكنت أتبرم بذلك أيضًا، فهذا ليس في عرفى رقصًا فنيًا، فالرقص الفنى عندى هو «بافلوفا» و«فوللر» و«إيزادورا دونكان» ورقص الجوقات والمجاميع في «الأوبرات» الرفيعة، أو «الباليه الروسى»، أو حتى في الرقصات الدينية التي نراها منقوشة في الفن المصرى والهندى، ولكنها كانت تحرك سيقانها ورأسها وذراعيها في الحجرة، فلا أجد مفرًا من النظر!..

كنت أقول لها إن رقصها هذا في المجموعة جماله ليس في ذاته، بل في التناسق العددى لكميات الأذرع والسيقان التي تتحرك في وقت واحد، وليته مع ذلك كان بالروح الفنى المعروف في راقصات المعابد الهندية؟!..

ولقد ألحّت علىّ إلحاحًا شديدًا في أن أذهب مرة لمشاهدتها على المسرح... وأحضرت لى تذاكر مجانية، فلم أجد من نفسى يومئذ حافزًا على

الذهاب... وليتنى ذهبت!..

وكاد الشتاء ينتهى، فجاءتنى ذات يوم تقول إن المسرح سيوفد الفرقة الراقصة لتقوم برحلة في «نيم» و«أورانج» و«أفنيون» في جنوب فرنسا، وقد تستغرق الرحلة شهراً أو شهرين، وجعلت تتجهز للرحيل، وهى ترجونى وتزين لى أن أذهب معهم في هذه الرحلة، فضحكت للفكرة: «أذهب في رحلة الراقصات بأى صفة؟... وعلى أى وضع؟... أبصفتى صديق الراقصة؟... هذا جميل جدّا!..

ومن يدرى، ربما عدت من الرحلة، وقد عُيّنتُ نهائيّا راقصاً بالفرقة، أو شيئًا من هذا القبيل؟!..

كلا يا عزيزتى «ساشا»!..

إنى لا أستطيع أن أترك باريس واللوفر والكتب والحى اللاتينى ومونمارتر وبلبور... اذهبى أنت وسيرى بمفردك، في طريق حياتك، وإنى أتمنى لك التوفيق والنجاح!..

وودع أحدنا الآخر وداعًا حارّا، وشعرت في تلك اللحظة بشىء من السعادة، لعودة حريتى الكاملة إلىّ... ووحدتى المطلقة!..

---

(1) أى ما يعادل وقتئذ ثمانية قروش مصرية.

الرسالة الثانية عشرة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

لو خطر لك أن تسألنى عن عملى طول هذا الزمن (من حيث الأدب والفن) لأجبتك على الفور هذا الجواب: هو العمل المتواصل على محو كل ما علق بى من الأدب والفن، وقد نجحت؛ فلم يبق واحد من القلائل الذين كانوا يعرفون ميولى الأدبية يذكر هذه الميول... لقد نسوا الآن ذلك، وأصبحوا يعرفون عنى كل شيء إلا الصلة بالأدب والفن... على أن هنالك شيئًا واحداً لم أقو على محوه... إنى يا «أندريه» ما زلت أردد كل يوم في أعماق نفسى، كلما خلوت إليها السانفونيات رقم «٥» و«٦» و«٤» و«٩» بكل تفاصيلها!..

إنى أصبحت آلف «بيتهوفن» إلى درجة يخيل إلىّ معها أنى فهمت سر كتابته وتأليفه، مع جهلى المطبق بالموسيقى!..

إن أذنى لا تستطيع الآن أن تُخْدَع في أسلوب «بيتهوفن» بين مئات الأساليب لمئات الموسيقيين.. إن قدرة «بيتهوفن» في البناء الصوتى تكاد تفتح أمام ذهنى أسرار كل بناء فنى آخر، بل أسرار البناء في الطبيعة نفسها!

الرسالة الثالثة عشرة

الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

قلت لك إنى استطعت الاستغناء عن كل شيء إلا الموسيقى!..

هذا صحيح.. وإنى بعد أن ختمت رسالتى السابقة إليك طفقت أفكر وأتساءل: لماذا آثرت الموسيقى دون التصوير مثلا؟... إنى أحب التصوير كما تعلم.. الواقع أن الآثار الموسيقية القيمة في متناول يدى بمختلف الوسائل.. أقربها وأيسرها الجراموفون، ولكن كيف وأين أتأمل هنا في «مصر» لوحات «جيوتو» و«أنجليكو» و«مملنج» و«رمبرانت»؟.. إن لدىّ بالطبع أغلب آثار عظماء المصورين، منقولة ومطبوعة طبعًا متقنًا... وإنى لأتأملها من حين إلى حين، ولكن ليس الحال في الصور كالحال في الموسيقى.. إن الموسيقى المنقولة في أسطوانات تعطيك على قدر الإمكان فكرة شاملة عن الأثر الفنى كله، ولكن الصورة المنقولة تحرمك أهم ركن من أركان العمل الفنى: وهو التلوين!..

ماذا يبقى لى مثلا من لوحة «باخوس» ل «دافنشى» إذا جردتها من لونها العجيب؟... إنها صورة فتى، لا أكثر ولا أقل.. فتى يمثل إله الخمر، ولكن اللون والتلوين؛ كأنهما السحر قلب الصورة، فإذا هى عنقود من العنب.. من عنب فلورنسا الأحمر الداكن!..

ما نظرت مرة إلى هذه الصورة إلا صحت في نفسى: يا لمعجزة الفنان الذي استطاع بريشته أن يجعل الآدمى عنقوداً.. ولكنه التلوين ... إن الرسم

ليهبط أحيانًا إلى المحل الثانى في بعض آثار المصورين، فكيف تريد منى أن أعيش مع صور فنية بغير ألوان؟... وبغير ألوانها الأصلية التي كَدّ الفنان في تأليفها؟... لقد قيل: إن «ليوناردو» كان يصنع أو يطبخ ألوانه بنفسه في معمله المغلق، لقد كان أكثر مصورى عصر النهضة يفعلون ذلك فيما يظهر، وكان تركيب ألوانهم سرّا يحفظونه كأنه تركيب «إكسير الحياة»... وفيم العجب؟!..

إن أسرار اللون في الصورة الفنية هو سر خلودها!..

إنه إكسير حياتها!..

الرسالة الرابعة عشرة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..»

أترانى أغالط نفسى؟.. أخشى أن يكون حبى للموسيقى الأوربية مصدره أنها قبل كل شيء بناء ذهنى.. ذلك أن موسيقانا الشرقية ـ وهى قائمة على الطرب والتأثير المادى ـ لا تسترعى منى اليوم أى التفات.. الواقع أن الموسيقى الأوربية بناء فنى ذهنى، شأنها في ذلك شأن القصة التمثيلية!..

والهندسة المعمارية، بل شأن المذهب الفلسفى والتفكير الرياضى!..

إنى مازلت أذكر قولك لى يوما: إن «عقليتى رياضية»... ربما كان هذا صحيحاً!..

لقد كذبت عليك وعلى نفسى إذ أخبرتك أنى أحل الألوان المحل الأول في آثار المصورين... الواقع أن الذي يثير اهتمامى في الصورة قبل كل شيء هو ما يسمونه la composition بنيانها وتركيبها... وما يسمونه le rythme رويها وتنغيمها؛ فمثلا لوحة كلوحة «المسيح يحمل صليبه» لـ «روفاييل»، أذكر منها كل تفاصيل تركيبها المحكم؛ بمواضع أشخاصها، وحركات أجسامهم، وإيماءات أيديهم، وطيات ثيابهم.. كل هذه الأشياء أبصرها، وقد اتسقت خطوطها، واتزنت، وكونت في عالم الضوء والرؤية تركيبا جميلا منغما؛ كأنه قصيد، لا ينبو فيه لفظ عن الروى.. أما الألوان

فلا أذكرها كثيراً؛ لأن عينى لم تمتلئ بها، امتلاء العين بالألوان في الطبيعة والحياة، والفن شرط لازم في التصوير... إن العقل في فن التصوير ليس في الرأس بقدر ما هو في العين!. العين النهمة التي تبصر وكأنها تغترف وتلتهم... تلك عين المصور المبدع!..

التصوير فن حسى أكثر مما هو فن ذهنى!..

الآن أدركت السر الذي طالما حيرنى أمام لوحات «روبانس»، فلطالما تساءلت: ما هذه النساء الممتلئات لحما وشحما، ذوات الأرداف المترجرجة والخدود المتوردة، ممن نبضت بِهنّ ريشة ذلك الفنان؟.. ولطالما تساءلت عن الغرض الذي دفع مثلا «بول سيزان» إلى تصوير طبقٍ من التفاح!..

ولطالما عجبت لمغامرات «بنفنو توتشيللنى»، المسطورة في مذكراته المشهورة، وما فيها من نهم حسى وحشى لمتع الحياة!..

الحقيقة أن الفنان المصور يجب أن تكون حواسه المادية ـ وعلى الأخص حاسة البصر ـ متيقظة لألوان الطبيعة، إلى حد النهم الوحشى!..

الفنان النابض بالحياة إما أن يكون متيقظ الحاسة إلى حد الوحشية، أو متيقظ الروح إلى حد الصوفية!..

في المصورين كذلك طائفة من المتصوفة، لعل خير مثل لهم هم السابقون لعصر النهضة قبيل القرن الرابع عشر Les Primitifs.. على أن اليقظة الروحية أو الحسية في الفن، ليست في رأيى وقفا على عصر من العصور، فهى ترجع أحيانا إلى طبيعة الفنان وحده، وحالات نفسه المتغيرة أحيانا.. فريشة «روبانس» التي صورت «إمفتريت» زوجة إله البحر «نبتون»، كأنها امرأة تزن ثمانين كيلو جراما... بضة.. غضة.. كتمثال من الزبد.. لا ينبعث منها أى معنى غير معنى المادة الحية والشهوة الحسية.. هذه الريشة نفسها هى التي صورت «إنزال المسيح عن الصليب» على نحو

رائع.. كله جمال روحى يبعث في نفس المشاهد خشوعا ورحمة، وشعوراً دينيا عميقا.. إن الفنان هو الكائن العجيب الذي يجب أن يلخص الطبيعة كلها بمادتها وروحها،في ذاته الضئيلة المحدودة.. هو ذلك الكائن الذي يعيش في داخله الحيوان والإله جنبا إلى جنب!..

الرسالة الخامسة عشرة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

لماذا لا تصرح بالحقيقة، وتقول لى في غير مدارة: رُح!..أنت لا تحب الأدب؟!..

يمنعك من ذلك شيء واحد: أنك منذ عرفتنى لم ترنى أعنى في حياتى بشىء آخر، غير المطالعة والتأمل!..

ومع ذلك فهأنذا اليوم لا أحب أن أطالع، ولا أن أتأمل.. آه يا «أندريه»!..

لماذا لم أتعلم في صغرى الموسيقى؟... إنى خلقت لأعيش كل حياتى في عالم الأصوات وحده!..

«أندريه»!..

يقوم في نفسى الآن شك كبير يخزنى!..

شك في علاقتى بالأدب والفكر!..

أعترف لك يا «أندريه»؛ كأنه اعتراف أمام قسيس!..

إنى لا أقرأ اليوم ـ خلا رسائلك ـ شيئًا. فقدت لذة القراءة!..

لعلى أبالغ في الجملة.. لكنها الحقيقة في قسط كبير.. كاشِفْنى بحقيقة أمرى، ولا تحاول مجاملتى أو مداراتى، وقد كشفت لك عن شكوكى! إنى أصغى إلى الموسيقى لا للفائدة، ولا للاطلاع، ولا حتى للحاجة الفكرية أو السمو الروحى؛ إنما للحياة نفسها.. إنى أعيش بين أنغامها كما تعيش النحلة بين ألوان الأزهار.. إن الجمال الذي ينبعث من تناسقها الفنى تدركه في نفسى أداة أدق من الفكر الواعى. لماذا لا أقرأ كذلك؟.. إن القراءة عندى جَهْد ومشقة، ووَعْى ويقظة، ولا شيء غير ذلك.. إنى أوَجِّه إليك هذا السؤال ولن أنفك أسألك الجواب: هل حقيقة ـ بينك وبين ضميرك ـ تعتقد أنى سأنتج شيئًا في شئون الفكر والأدب؟..

الرسالة السادسة عشرة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

ماذا تريد منى؟.. نعم... إنى أطلب إليك، وأريد منك،لأنك تستطيع أن تعطينى!..

يدهشنى في كل رسائلك شيء واحد:أنك تريد أن أكتب إليك، ولعله كرم خلق منك؛ أما أنا فلست أكتم عنك!..

لو أنى في مكانك وأنت في مكانى لما ترددت في قطع الصلة بهذا الرفيق الغاضب المفلس!..

ما الذي تستبقينى من أجله؟.. هذا دائماً ما لست أعرفه: تذكرنى هذه المناسبة بفكرة خطرت لي منذ زمن،وهى أن أكرس لك خطاباً طويلا أحدثك فيه عن الصداقة؛ فلقد هالنى أن أصحو في فترة من هذا السبات الذهنى، فلا أجد حولى ها هنا صديقاً ولا رفيقاً!..

ولعل الذنب ذنبى؛ فقد لحظت من حالتى العصبية، ومن ضيق صدرى، تعذر جلوسى إلى الرفاق؛ كما أنى لحظت هدوء نفسى، وانتظام تنفسى، واتساع صدرى، كلما عدت إلى حظيرة الوحدة المطلقة!..

في أحضان الوحدة وحدها؛ أتنفس الصعداء في لذة وراحة.. أهو مرض؟.. أهو توحش؟.. أهو حال عارض طارئ؟... لست أدرى حتى الآن!..

إن مجرد الاختلاط العادى والاجتماع في ذاته ـ حتى مع مَنْ يروقنى مجلسه ـ أمر يشق على نفسى، ويُعَدّ في نظرى من الأهوال!..

تستطيع أن تقول إنى اليوم في فترة من حياتى، وقفتْ فيها حركة القلب والعقل معنويّا!..

إنى أحس نفسى الآن تهبط إلى مجرد الآلة!..

إنى غير جدير بأى عمل يُحتاج فيه إلى العقل أو إلى القلب!..

الحب يخيل إلىّ أنه التفاحة التي لم أذق حلوها قط، ولا أود قط أن أعصى الله من أجلها.. وماذا تريد من شخص لا يعرف حتى الصداقة؟!..

العقل والتفكير!..

آه!..

ذهب ذلك الفتى الذي كان يقرأ الكتب ساعة، ويسبح في التأمل والاستنباط ساعات!..

وماذا تريد من شخص لا يقوى على فتح جريدة؟!..

كل ما في الإنسان من آلة وآلىّ هو أنا الآن.. أنا اليوم شيء أقل بكثير من إنسان، ومع ذلك يا عزيزي «أندريه» تشاء بى سخرية الله أو الشيطان أن أسمع وصفًا عجيبًا لى جرى به لسان رجل عجيب!. كان ذلك في إحدى الزيارات العائلية، ساقونى إليها مرغمًا، فجلست لحظة، ثم هممت بالانصراف، وإذا رجل يدخل فيجلس، وإذا الحاضرون يُقْبِلون عليه طالبين إليه أن يقرأ أكفهم، وقيل لى إنه رجل من ذوى اليسار، ومن معارف أصحاب الدار ولكنه ولع بعلم الكف منذ صغره، وأنفق عمره في الإحاطة به، والتعمق فيه، حتى

حذقه، فلم يخطئ مرة في تنجيمه..وفرغ الرجل من النظر في أكف الحاضرين، ودعانى أحدهم أن أمد كفى إليه ففعلت، فنظر الرجل فيها ساعة، ثم رفع عينيه إلى وجهى، ولعله ما رأى فيه غير ابتسامة المتشكك في علم رجل غير ذى منظر ولا هيئة، ينمان عن ذكاء!..

لقد كان رجلاً بديناً أصلع ضعيف البصر، ترتسم على وجهه السذاجة إن لم أقل الغباء.. لقد مثل في رأسى صورة للعمدة الفلاح الجاهل البسيط، ولكنه- عندما تكلم قارئاً كفى- فاه بألفاظ أدهشتنى: ألفاظ لا تجرى إلا على ألسنة أهل العلم والفطنة والثقافة.. وإليك نص ما قال: « أنت روحانى.. طبيعتك روحانية»!..

وهنا طلبت إليه تفسير هذه الكلمات؛ فقد عجبت لنطق مثله بمثلها..ثم نعتى بمدلولها وهو لا يعرف من أمرى شيئا، ولم أتكلم طول الوقت إلا بالتافه من كلمات المجاملة.. وكنت دائماً أصغى إلى الآخرين.. ولعلى كنت أصغر الحاضرين شأناً وأقربهم إلى هيئة الحمق والبله، فأجاب: «لا تسألنى تفسيراً.. لا تسألنى في غير ما أرى: أمامك الشمس.. الشمس لا ترى في كل كف ولا في كل طالع، الشمس أراها في نجم حضرتك!..»، ولكن حضرتى ما كان يعنيه بالضروة غير مسألة «أكل عيشه» وكسب قوته.. فأسرعت قائلا:« وماذا غير ذلك»؟.. فمضى يقول: «ثم إنك من حيث الثروة والسعادة قنوع!..

سعادتك في القناعة، والغنى عندك قناعة..يعنى لن يكون غناك في المال»!..

ثم قال:« أنت تحب العزلة.. أنت مثل رجل منقطع».. هنا شعرت برجفة!..

تلك يا « أندريه» هى الحقيقة الوحيدة التي اعتقدت أن الرجل فاه بها... ولا تستطيع أن تتصور مقدار دهشتنى عندما قال ذلك، خصوصاً في وقت

كنت أُكْثِرُ فيه من تأمل حالتى المزعجة.. ونظر الرجل أيضًا ثم قال شيئًا غمنى وغم أهلى على الخصوص؛ فقد قال أفاده الله:« فقط..فقط...لست أرى طريقك في مناصب رسمية!..

فلم أرد فهم مراده بادئ الأمر، وخالجنى قلق وكدر؛ فأنا لم أزل مستبشرا بوظيفتى القضائيةالتى كادت تتم إجراءات تعيينى فيها..فقلت له: «وما معنى طالعى إذن إذا كنتَ لا ترى لى طريقًا في وظائف ال...»؟.. فقاطعنى بعنف: « أنا أرى فقط ولا أفسر»!..

لقد أوردت لك يا «أندريه» نص ألفاظ الرجل على وجه التقريب، فما رأيك؟.. إذا أردت رأيى أنا فاعلم أنى ضحكت في نفسى كثيراً لقوله إنى «روحانى»!..

من العجيب أن يجىء قوله هذا في وقت أوقن فيه بأنى «مادى» المادية كلها؛ بل «آلى» الآلية كلها.. لقد كدت أصيح في وجه الرجل قائلا: أيها المنجم!..

إنى أوثر أن أمسخ قردًا على أن تصدق فىّ «روحانيتك» هذه!..

ما أضاعنى إلا هذه الروحانية!..

أما «الشمس» أيها المنجم فإنى أبيعها لمن يشتريها من الحاضرين بمبلغ مائة وعشرين قرشًا، ثمن تذاكر دخول «كازينو سان استفانو» لحضور «كونسيرات» «الخواجة بونومى»!..

«القناعة»!..

سأعيش بالقناعة طول حياتى؟.. يا للبؤس!..

لماذا؟.. لأن القناعة تاج دائم؟!..

لا يا سيدى المنجم!..

إنى مستعد أيضًا لعرض هذا التاج للبيع بالمزاد!..

سأبيعه بالبخس كما بِيعَتْ تيجان «آل رومانوف» والخليفة العثمانى.. نحن نعيش الآن عصرا تحول فيه التيجان إلى ورق من «البنكنوت»!..

إن هذا العالم بالكف الذي لم يخطىء مرة ـ قد أخطأ هذه المرة، حتى يحق له أن يقول إنه أخطأ مرة؛ فالاستثناء يسبغ أحيانًا على الأخبار رداء الصدق والحقيقة!..

آه يا «أندريه»!..

إنى في حاجة إلى أن يدق القلب دقتين أو ثلاثًا، ثم يقف.. لدينا ساعة كبيرة في ردهة الطابق الأسفل، جئت من أوربا فوجدتها، وقيل لى إنها مشتراة في مزاد عام، منذ ثلاثة أعوام!..

ساعة سليمة دقيقة، تسير على خير ما تكون الدقة والضبط!..

ولم تعرف قط يوما الوقوف ولا التأخير، وإذا بها ذات يوم قد وقفت فجأة، فدهش لذلك أهل البيت، وهاجوا وماجوا، وجعل كل يقترح أمرًا لإصلاحها، فحاولت أنا إصلاحها فلم تُصْلَح، وسمع والدى بأمرها فنزل من حجرته إليها يعالجها باللين فلم تُصْلَح، فطلب مطرقة وجعل يدق بعض ما في هيكلها من مسامير، ويفك بعض ما في جوفها من «تروس» ـ فلم يظفر بطائل، فتركها آخر الأمر وتركناها يائسين، وإذا بها ذات ليلة تدق في جوف الليل، من تلقاء نفسها، والكل نيام، دقتين أو ثلاثًا.. في ذلك السكون التام.. ومنذ تلك اللحظة سارت، ولا يدرى غير الله ما أوقفها وما سيرها!..

ترى بعد موت طويل يستطيع القلب أن يدق دقتين أو ثلاثًا، يعقبها البعث والحياة؟!..

الرسالة السابعة عشرة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

مات «بونومى»!..

مات «إدجار بونومى»!..

الأحد الماضى فقط.. منذ ثلاثة أيام رأيته في «كازينو سان استفانو» يقود «أندانت» السانفونية الثانية و«أللیجرو» السانفونية الأولى «لجوستاف ماهلر» وال Antiche danze «لرسيبجى» وكونسرتو البيانو والأوركسترا «لإدوار جريج».. فقط أمس الأول سمعت صوته، في طرقات «الكازينو» يعد «بروفات» الأحد القادم!..

وفقط أمس ظهرت على جدران رمل «الإسكندرية» الإعلانات المعتادة، لأسماء القطع التي ستعزف في الحفلة المقبلة، وعلى رأسها La Rédemption «لسيزار فرانك».. إدارة الكازينو جاهلة ما يخبئه «عزرائيل» «للمايسترو» المسكين!..

فهى ما زالت كعادتها جادة في إصدار الإعلانات وتوزيعها متوجة بالعبارة المألوفة «الكونسير سانفونيك»: رقم ١٤ تحت قيادة «المايسترو إدجار بونومى»!..

إلى رحمة الله يا «بونومى»!..

حتى أنت؟!..

الوحيد الذي لنا في مصر!..

إن موت هذا الرجل نكبة عندى، ومهما يكن من أمره وأمر فنه، فقد كان لى فيه العزاء والسلوى في هذا الجو الفقير إلى الفن.. قل إن الله يريد حرمانى كل مصدر سعادة روحية، حتى أنقلب في النهاية بهيما يرعى أرض مصر الخصيبة!..

لا بأس!..

فلنرجع إلى «الجراموفون» الآلى!..

ولكن رحمة الله عليك يا «بونومى» بمقدار ما أسعدتنى في لحظات!..

* * *

«أندريه»!..

هذا ثالث خطاب إليك من سلسلة خطابات مكتوبة، ولاشك تحت تأثير حالة شبه واحدة، وأخشى أن تفسر هذه الحالة بما اعتدت أن تفسرها به، قائلا: «أوه!..

إنى أفهم حالته جيداً من خلال سطوره!..

. الواقع أنك قدير على استشفاف ما بين سطورى، غير أنى لا أريد أن تفهم أكثر من أنى الآن في حالة كآبة عارضة!..

أوَ لا تعطينى حتى حق الوقوع في الكآبة من حين إلى حين؟.. لكن ثق بأنها حالة نفسية داخلية، لا أثر لها في تصرفاتى الخارجية، ولا صدى لها في

أعمالى الظاهرة، ولا تظهر حتى لأعين غيرك من الناس، ومع ذلك فإنى قد محوتها أو سأمحوها من أمام عينيك أنت أيضًا؛ لأنى أعلم أنك لا تحبنى مكتئبا.. نعم يجب علىّ أن أخاطبك ضاحكا دائمًا، وإلا حق لك أن تصيح بى: «اضحك أيها البلياتشو!..»، كما حق للجمهور أن يصيح ببلياتشو «ليون كافللو» في الأوبرا المشهورة!..

نعم، لماذا أطلعك على الأركان السوداء من حياتى؟.. أنت الذي لا يأخذ حياتى على سبيل الجد؛ فلألبسن لك «الطرطور»، ولأدهنن لك الوجه بالدقيق، ولتدق الطبول، وليُنْفَخ في البوق، وليُرْفَع الستار عن الفصل المضحك: اسمع يا سيدى!..

أيام أن كان صديقك الشرقى يتناول الغداء في المطعم الإلزاسى.. لقد زعم أن «الساقية» الرشيقة ـ خادم المحل ـ كانت تخالسه النظر!..

الواقع أنها منذ وقع بصرها عليه أول مرة، وهى لا تفتأ ترمقه كلما مرت به، حاملة طبق الكرنب، المعمر بسجق «فرانكفور» أو «نصف بيرة» أو «واحد» جبن «كمامبير».. لقد عجبت حقّا لأمر هذه الجميلة التي سخت على بكل هذا العطف... إذ خصتنى بالتفاتها، دون أولئك العديدين الذين لا يأتون إلى هذا المكان إلا من أجلها.. أجل يا سيد «أندريه»، لم تكن أنت وحدك الذي كان يصنع ذلك!..

لقد كانت هنالك عصبة شبان يظهر أنهم من «النرويج»، كانوا يختلفون إلى ذلك المطعم لرؤية «القمر» في نصف النهار!..

أما عن فرح «توفيق الحكيم» بهذا العطف الخاص فحدث ولا حرج!..

لقد شمخ وانتفخ وقال لنفسه: «لعل ميزة خفية أو ظاهرة فىّ.. هى التي استلفتت نظر الفتاة!..

وأراد يومًا أن يبتسم لها ولكنه نظر قبل ذلك إلى وجهه في المرآة، وإذا هو فجأة يدرك سر نظرات الجميلة إليه.. يالخيبة الأمل!..

وتذكر في تلك اللحظة أن نظراتها كانت موجهة في حقيقة الأمر إلى رأسه، إلى شعره، إلى ذلك الشعر المنفوش «أرتستيك»، ومن تحته ذلك الوجه الغريب، بعينيه اللتين تشبهان أعين أهل الأساطير الدينية المصورة في الفسيفساء البيزنطية، وشفتيه الغليظتين الإفريقيتين كأنهما شفتا ساحر زنجى.. عند ذاك تذكر أيضًا ما قالته فيه خادم الأسرة التي نزل عندها بحى «فوجيرار» أول عهده بباريس... لقد دخلت عليه الخادم في الصباح تحمل صينية الفطور، فوقع بصرها عليه في السرير، لا يبدو منه إلا رأس يُطِلّ من اللحاف الناصع؛ كأنه رأس «يوحنا المعمدان» على صينية الفضة... ولكن حاش لله أن يكون هذا معمدانا.. صاحب مثل هذا الرأس لا يمكن أن يكون من الآدميين.. ذلك ولا ريب ما جال بخاطر الخادم، وهى تنظر إلى شعرى الذي هب قائمًا إلى ما فوق مسند السرير في شكل دائرة؛ كأنه هالة من الهباب الأسود، على حافة الوسادة البيضاء... أما الوجه فوق الوسادة وتحت الهالة فلم تره لحسن الحظ.. ومضت الأيام، وإذا صاحبة البيت تقول لى ذات يوم باسمة، وقد زالت بيننا الكلفة: «أتدرى ما حدث في صباحك الأول لدينا؟.. لقد جاءتنى الخادم تقول مرتاعة: «أتدرين يا سيدتى من حل بدارنا؟.. فسألتها: من؟.. فأجابت: C'est Le Diable إنه الشيطان!..

ولعلها صدقت، ولست أدرى ما ذكرنى الساعة بهذه الحادثة التي كدت أنساها، ولم يذكرنى بها حتى خطابك الممتع الذي حدثتنى فيه عن ذلك القسيس الذي ظن «توفيق الحكيم بملابسه السوداء» الشيطان أو المسيح الدجال... إذن ما جاء بخطابك لم يكن محض خرافة ولا تأليف!..

من يدرى؟.. لعلى أخذت عن إبليس صورته وهيئته!..

لكن.. هل تظن أن لى أيضًا قلبه؟.. لا أظن!..

وبعد.. فلتسكت الطبول، وليغسل «البلياتشو» وجهه، فقد انتهى الفصل المضحك!..

الرسالة الثامنة عشرة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

هل حقّا أنت تفهمنى؟.. وهل تقدر ما أنا فيه؟... إنها دائمًا حالة القلق والبحث والتنقيب عن الأسلوب!..

لكن انتظر!..

ماذا أريد أن أقول؟.. هل لى الحق أن أتكلم في الأدب؟.. مع ذلك أتقطع شكا وقلقًا وبحثًا يا صديقى «أندريه» لا عن أسلوب الأدب وحده، بل عن أسلوب حياتى!..

عزيزى «أندريه»!..

ولنعد إلى ما جاء في رسالتيك الأخيرتين عن غرقك في بحر الكتب والمطالعات وخروجك مصابا بحمى الشك والقلق.. ينبغى أن أبادر فأقول لك إن هذا القلق مرض دورى لكل رجل فكر!..

أين كنت أنت أيام إصابتى بهذا المرض الإصابة الأولى؟.. لقد حدث لى بالضبط كل ما وصفت... في ذلك الوقت كنت أنت في مصنعك بعيداً عن المنطقة الجِدّيّة العميقة من نفسى، وكنت أنا في حجرتى قريبًا من مسكن المأسوف عليه «إيفان»!..

لقد كان العامان الأخيران من عهد «باريس» رازحين تحت أثقال هذا المرض الموهن. لقد فَتَحَتْ أمامى المطالعات دنييات لا قبل لى بها، وعوالم لا حدود لها.. وقد حدث ذلك فجأة أو على الأقل في سرعة لم يتحملها ذهنى فصار مَثَلى مَثَل ذبابة أطلقت في أجواز الفضاء الهائل، وهى التي ما هامت إلا في جو الحجرة الضيقة، وما عرفت النور إلا من خلال النافذة الزجاجية المغلقة. على أن هنالك فرقا بينى وبينك، لا يجوز أن تنساه.. فرق جعل مرضى أثقل وطأة وأشد فتكا، ذلك أنى كنت أعتبر شئون الأدب والفكر حرفة وغاية!..

وكنت أدع المتصلين بى يفهمون عنى ذلك، وكنت أعلن لا فقط حبى لشئون الفكر والأدب والفن بل اشتغالى الكلى بها.. أما أنت فقد كنت تعمل عملا حقيقيا ترتزق منه، وتأخذه على سبيل الجد، وما كانت المطالعات عندك إلا هواية، وما كان الإغراق في التأمل والتفكير والخيال إلا موضع سخريتك، على الأقل في أول عهدك إلى أن رضيت آخر الأمر أن تتفضل على هذه الأمور بنظرة تسامح. ذلك حالك وهو كما ترى ليس خطيراً إلى حد كبير.. أما أنا فقد تفاقم خطبى.. لقد أضعتُ وقتى كله في باريس مَحْنِيًا على مكتب الحجرة رقم ٤٧ بشارع بلبور، أقرأ وأقرأ حتى قرأت كل شيء!..

لم أترك شيئًا في تاريخ النشاط الذهنى لم أطلع عليه. لقد غرقت في آداب الأمم كلها وفلسفاتها وفنونها.. لم أكن أسمح لنفسى بأن أجهل فرعا من فروع المعرفة؛ لأنى كنت أعتقد أن الأديب في عصرنا الحاضر يجب أن يكون «موسوعيّا». لذلك بذلت جهدى في أن أحيط بأبرز ما أنتجت العبقرية الإنسانية!..

حتى العلوم، أردت أن ألم إلماما بأهم نتائجها.. ففى الهندسة: حاولت فهم هندسة «نيومان» المعارضة لهندسة «إقلديوس» التقليدية. والرياضة: أردت فهم مراميها العليا في مؤلفات الرياضى «هنرى بونكاريه». والطبيعة

والفلك: بدأتهما «بإسحق نيوتن» حتى بلغت نظرية «أينشتين» التي قرأت فيها وحدها نحو خمسة كتب. وفي علم الحياة: قرأت بعض كتب «داروين» و«لامارك».. وفي علوم النفس: بدأت بكتب «جورج توماس» «وأرمان ريبو»؛ وانتهيت إلى أكثر ما كتب عن نظريات «فرويد»، واستلفتت نظرى العلوم «التيوزوقية» فقرأت كتب «آن بيزانت»، «وإدوار شوريه» و«رودلف ستيتر» وخرجت منها إلى العلوم الروحية، فقرأت أبحاث «أوليفر لودج» و«وليام باريت» و«فلاماريون»؛ حتى علوم الكهرباء: حاولت فهم ما أستطيع فهمه من نظريات «فاراداى» و«تومسون» و«بيران»...إلخ.. أما قراءتى في القصص التمثيلى، فهى أعجب شيء فعلته. لقد قرأت كما أخبرتك ذات مرة «المكتبة المسرحية» La Librairie Théatrale برمتها، فأنا كنت أراسلها من مصر قبل نزوحى إلى فرنسا، وأعرف عنوانها في «الجران بولفار»، وكانت هى أول حانوت دخلته إذ دخلت «باريس»... فجعلت أختلف إليها أياماً طويلة، أطالع صفوف كتبها صفّا صفّا، وأنطلق آخر النهار بما أستطيع شراءه مداراة لصاحب الحانوت، واعتاد الكُتُبِىّ رؤيتى كل يوم على هذا الحال.. إلى أن نظر ذات يوم حوله فلم يجدنى، فسأل في ذلك أحد عماله مستغربًا... ثم حانت منه التفاتة إلى أعلى المحل، فأبصرنى في قمة السلم لاصقًا بالسقف ألتهم الكتب التي في الصف العلوى الأخير.. أجل يا «أندريه» فعلت هذا، وبعد ذلك كله انكببت أكتب وأكتب مخطوطات.. كان مصيرها كلها التمزيق.. إن ما جعلتك تقرؤه منها يا «أندريه» لا يوازى جزءاً من عشرة أجزاء مما أخفيته عنك، وانتهيت إلى تمزيقه قبل أن تطلع عليه عين.. ولعل ما قرأته أنت هو أنكب وأقبح ما سودت به وجه ورق.. إنها سهول من الصحارى والرمال تصور لنا سرابا بعيداً لن نبلغه أبداً، سهول من الأساليب المختلفة كلها «السهل الممتنع». يحسب القارئ أنه محيط بأسرارها، واضع اليد على مفاتيحها، مستطيع أن يبلغ مبلغها لو أمعن في السير والبحث والكتابة فيسير ويسير متوهما في كل

خطوة أنه يبصر «أسلوبه الخاص» المنشود يلمع فوق تلك السهول، لكنه ما يبصر غير سراب.. ولشد ما توهمنا أن الأسلوب الخاص معناه التجديد وأن التجديد معناه الإغراب، وبهذا الوهم كتبتُ حماقات كنت أحسبها شعراً، ونزعتُ إلى الإغراب خشية التقليد؛ فإذا بى أقع دون أن أشعر في محاكاة «الدادايزم» و«السوريالزم» و«الكويزم» الأدبى، وإذا ماكنت أظنه استيحاء مبتكراً في وضع الشعر على طريقة «بيكاسو» و«ماتيس» في التصوير الحديث؛ ـ ليس إلا صدى باهتاً لطريقة «جان كوكتو» ونزعات «مارسيل شووب» واتجاهات «ماكس جاكوب» وَضعتُ في هذا الأسلوب قطعاً كثيرة أهمها: «النفس» و«القبلة» و«أبو الهول» إلخ.. مزقتها طبعاً قبل أن أفكر في إطلاعك عليها.. وغير ذلك كم من الفصول التمثيلية كتبتُ ومزقتُ!..

لقد كنت أظل أكتب أحياناً تسع أو عشر ساعات في اليوم بلا انقطاع دون أن أذكر الجوع، أو أفطن إلى أوقات الطعام.. ولقد أنفقت شهوراً في وضع قصة تمثيلية، قرأتها لصديقى «مسيو هاب» وقد كان قبل الحرب ممثلا مهما، كما تعلم، في أشهر مسارح «باريس»..! قرأناها معاً في يوم بأكمله بحديقة «اللوكسمبورج»، وكان مصيرها «الإلقاء» في أول مرحاض عام بشارع مدسيس.. ذلك أنى لم أستطع صبراً على الانتظار حتى أعود إلى مسكنى فألقيها في سلة المطبخ، ولكنى لم أقنط مع كل ذلك.. لقد استمرت الحمى بعدئذ سنتين كاملتين قاسيت فيهما كثيراً.. لقد كان القلق مستحوذاً علىّ إلى درجة مروعة، لأنى كنت أظن في الأدب مستقبلى.. لقد كنت أضن على نفسى المُتْعَبَة بشىء من الراحة والاستجمام.. لقد دعانى زملائى المفلحون من دكاترة الحقوق إلى السفر معهم في الصيف إلى شاطئ «أوستند»، أو إلى جبال «الفوج» أو إلى قرية على بحيرات «سويسرا» استكشفوها، وكانوا يذهبون لنزهة الصيف زرافات، يضحكون ويلهون وكلهم فرح بالحياة، مدرك لقيمة الشباب.. أما أنا ففى باريس دائماً قد انحنى ظهرى على مكتبى بشارع «بلبور» أبحث وأبحث عن ذلك السراب

الذي يدعى «الأسلوب».. حتى الحب، حتى «فينوس» ضَحّيْتُها من أجل «أبوللون».. لقد كنت أصالح «إيما» يوما لأخاصمها شهراً.. ولقد كانت الظروف تشاء أن أقابلها في المصعد وجهًا لوجه، وتسنح فرصة الصفاء واللقاء.. ولكنى أقول في نفسى، علام الصلح وأنا لم أزل مع الفن في خصام؟.. وأعود إلى أوراقى أنكب عليها انكبابا غير حافل بغضب «إلهة الحب» معفراً جبينى عند أقدام «إله الشعر والفن»!..

وإذا بهذا الإله القاسى يهزأ في النهاية بتعبى وكدى، ويبسم لى قائلا بلسان مسيو هاب: «نعم!..

نعم!..

لديك موهبة الحوار... لكن..». فيلقى بهذه الكلمة الصغيرة جرثومة الشك في أعماق نفسى، فأنهال على عملى تمزيقًا لأبدأ عملا آخر في كد ونشاط قاتلين.. ويأتى الشتاء دون أن أشعر، ويسافر أصدقائى إلى التمتع بالشمس في «نيس» و«جراس»، وأنا على عهدى أرفض الذهاب معهم؛ لألقى بنفسى من جديد في أتون تلك الحمى المستعرة!..

ولا أكاد أفيق إلا على صوت غناء «إيما» يصعد إلىّ من نافذتها بالطابق السفلى، ولكن.. أين لى راحة الضمير؟... أين لى ذلك الاطمئنان إلى آخرة طريقى الوعر المُغَلّف بالضباب؟!..

أين لى ثقتى بنفسى وعملى؟.. أين لى الأمل ببعض النجاح؟ أين لى القليل من الرجاء يلطف من ذلك القلق الذي يحرمنى من التمتع بالحياة والشباب، وباريس؟.. ما كان شيء يؤلمنى ويطعن قلبى مثل سماع تلك الأغنية الباريسية ومطلعها: Si vous voulez l’amour n’attendez pas huit jours «إذا كنت تريد الغرام فلا تنتظر ثمانية أيام!..

وأنا لا أنتظر ثمانية أيام فقط.. إنما أنتظر الأبد.. أنتظر السراب الذي لن يأتى... أنتظر الوصول إلى مفتاح حياتى وسر غدى، بل أنتظر على الأقل علامة واحدة، تدلنى على أن ما أنفق من وقت وجهد وألم في البحث لم يضع عبثًا!..

لقد كان مسيو هاب يعيب علىّ شيئًا واحدًا: كتابتى الفرنسية مباشرة، ولكن ذلك لم يفت في عضدى، ووضعنى هذا القول وأمثاله في جحيم المعركة من جديد!..

فاندفعت أعمل سنة كاملة أخرى، كتبت في نهايتها صفحات تقرب من الخمسمائة لم أطلعك عليها، ولكن بعض الأصدقاء حملوها إلى ناقد فرنسى معروف لم يرنى ولم يعرفنى، يستطيع أن يصدقنى الرأى.. فأبدى رأيه في خطاب طويل، فيه تحليل دقيق ختمه بالعبارة المعهودة: أفكار كثيرة، وموهبة في الحوار.. ولكن... mais beaucoup d'idées dans Le dialogue. آه لهذه ال mais!..

آه لهذه ال «لكن»!..

قتلتنى هذه ال mais.. لطالما مزّقَتْ وقتى وجهدى.. وقلبى.. وشعرت أنى سجين هذه ال mais أفظع مما سجن بها ملك روما في قصة «إدمون روستان»!..

ومزقت تلك الصفحات أيضًا.. إن اعتراضات الجميع لا تتغير: «لماذا تحاول أن تتكلف الأسلوب تكلفًا؟!..

إنه لا يفوح من أسلوبك الفرنسى أى عطر شخصى أخاذ.. إنما هى عبارات محفوظة في كتب البلاغة تحسب أنها أسلوب رائع!..

حقا.. إن احتفالى بأمر الأسلوب قد أوقعنى في التقليد.. آه لكلمة أسلوب، ولكلمة formule!..

لقد بدأت أبصر وقتئذ.. لقد تبين لى بعد طول الجرى والجهد أن الأسلوب أحيانًا حجة الكاتب الذي لا يجد ما يقول!..

إن الذي عنده ما يقول للناس يُخرج بكل بساطة ما لديه من كنوز.. فلا يحفل بأسلوب التقديم ويتكلف الوضع المسرحى في الإعطاء إلا ذلك الذي يعطى شيئًا تافهًا!..

ما الأسلوب إلا تلك الآلة الصناعية التي تتوسل بها للوصول إلى الحقيقة، ولكن ما أروع الحقيقة لو تفجرت وحدها، من أعماق القلب الصادق، في كلمات بسيطة!..

لهذا كان الأسلوب أحيانًا كل أدب أولئك الذين لا يحملون في جعبتهم ما ينفع الناس!..

ولقد لاحظت أنت يا «أندريه» بحق أن كتابًا مثل كتاب «السحر الأسود» ل «بول موران» هو مجرد أسلوب، وأن كتابا مثل كتاب «قافلة بغير إبل» ل «رولان دور جليس» ليس سوى أسلوب!..

هذا العصر الآلى يلجأ أحيانًا إلى آلة الأسلوب كلما أعوزته روح الحقائق الإنسانية التي أبرزها الأدب القديم... الأسلوب هو المظهر الخادع الذي يخفى به كتّاب اليوم جهلهم المطبق بروح الشعوب التي يزعمون النفوذ إلى صميمها، في مدى رحلة شهرين بالقطار والباخرة!..

إنهم يستعيضون بفن «الديكور الكلامى» و«الريبورتاج» السريع، واللون المحلى السطحى، عن الحقائق التي لا يحسها إلا أهلها.. إن ما يطلبه الغرب، وما يطلبه الشرق، أشياء غير ذلك.. اقرأ مقالات «لويس برتران» عن إسبانيا.. إنه قد أدرك كل هذا، فهو يتهم كتاب فرنسا المعاصرين بأنهم ـ لاهتمامهم باللون السطحى وحده ـ قضوا على «إسبانيا» أن تظل مجهولة إلى الأبد لعين «فرنسا».. وأنا أزيد عليه أن كتّاب إسبانيا أيضًا من أمثال

«بلاسكو إيبانيز» ساهموا في هذا التضليل.. لقد قيل: إن هذا الكاتب الإسبانى المشهور كان ذا وجهين: وجه يتجه إلى وطنه، ينشئ له أعمالا هى وحدها ذات القيمة الحقيقية، ووجه يتجه إلى أوربا، فينشئ لها أعمالا دولية.. وأوربا للأسف لا تعرف إلا هذا الجانب المصنوع لها صنعًا! إذا كان هذا قيل عن «إسبانيا» فماذا يقال عن مصر والشرق؟ إن مهمة كاتب مصرى أو شرقى لأشق وأعسر وأكبر من ذلك كله.. ولكن لا بد من جهادنا حتى في بلادنا أيضًا؛ فإن الأسلوب السليم لم يزل في عرفنا مرادف اللغة المتصنعة المنمقة، وقليل مَنْ فَطن إلى أن الأسلوب هو روح وشخصية!..

لقد كان مسيو «هاب» يدعونى إلى ترك الكتابة الفرنسية لا لأنى لا أحسنها!..

على النقيض؛ لأنه رآنى أتكلفها، وأنمقها، وأستخدم تراكيب موضوعة، وبلاغة محفوظة؛ مما حبس روحى وسجن شخصيتى في أغلال من الكذب والتصنع... لقد أصاب الحقيقة.. لا يخلق الأسلوب الحق إلا الكاتب الصادق في شعوره وتفكيره إلى حد ينسيه أنه ينشئ أسلوبًا.. البلاغة الحقيقية هى الفكرة النبيلة في الثوب البسيط.. هى التواضع في الزى والتسامى في الفكر.. كذلك كان أسلوب الأنبياء في حياتهم: انظر إلى «محمد» و«عيسى» على الخصوص: بساطة في الملبس، وتواضع في المظهر، وسمو في الشعور والتفكير!..

إنى يا «أندريه» مهتم كل الاهتمام بالتفاتك الحاضر إلى الأدب.. وإن بحثك وشكك وقلقك لمما يدنيك إلى نفسى، فمرحبًا بك.. امض فيما أنت فيه، ولا تخش هذا المرض الضرورى، بل يجب ألا تشفى منه سريعًا.. حبذا لو اتصلت بك، وبما تقرأ أكثر من ذلك!..

ولو أنى أتبع اليوم نظاما صحيا régime sec أى عدم المطالعة في الأدب إطلاقا.. قراءتى الآن قليلة، وفي أشياء أخرى غير الأدب، مثل تقارير

عصبة الأمم، وسياسة أوربا الاقتصادية بعد الحرب!..

إلخ. (حاشية) أصبح الأمل ضئيلا في أمر تعيينى النهائى بالقضاء المختلط؛ فإنى بعد أن ألحقت بنيابة الإسكندرية تحت التمرين توطئة للتعيين، ولبثت أعمل تلك الشهور الطوال، عينوا في كل وظيفة تخلو شخصاً غيرى، وتركونى في القاع كثمالة الكأس!..

الرسالة التاسعة عشرة

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

أحقيقة أن امرأة تستطيع أن تميل إلى؟.. أيها الماكر!..

لقد كشفت حيلتك.. تريدأن توهمنى أن «الجميلة» ساقية المطعم الإلزاسى تحمل لى أجمل الذكرى!..

كلا.. إنك تعاملنى دائمًا؛ كما يعامل طبيب مريضًا.. وهذه الفكرة وحدها كفيلة أن تجعلنى لا أصدق ما تقول.. تذكر لى أنك دعوتها إلى العشاء، وتخشى غضبى.. لا يا سيدى!..

إنى لم أغضب.. على النقيض، لقد سرنى ذلك!..

إنها كانت عندى شيئًا جميلا حقّا.. هى شيء جميل لم أجرؤ على مسه بأناملى، حتى لا ينهار أملى فيه.. ليت الأمر اقتصر على الحب يا «أندريه»!..

كل شيء ينهار بلمسة من يدى... كأنما أبنى الآمال من الرمال.. لقد مضى أكثر من عام وأنا في «الإسكندرية».. لقد تغيرتُ كثيرًا، وتنازلتُ عن أغلب أفكارى وآمالى.. لقد أرغمتنى الحياة على المصانعة في أمور كثيرة:

لقد نبذت فكرة القضاء المختلط، واتجهت شطر القضاء الأهلى.. إنى الآن في انتظار أى قضاء؟!..

إن الحياة لتقهرنى قهرا على قبول ما لا أريد.. إنى منذ التحاقى بالنيابة المختلطة تلك الشهور، وأنا أختلط بطوائف من الموظفين، وبألوان من الناس؛ ما كنت أحسب أنى أستطيع الحياة بينهم يوما. وحتى مطالعاتى الآن أكثرها ـ عدا ما يتعلق منها بعملى الرسمى ـ يجنح إلى الدراسات الجافة والمسائل الاقتصادية، ومع ذلك فإنى أشعر دائماً بأن في نفسى منطقة رفيعة منيعة، لا يصل إليها أحد؛ فإنى ما أكاد أختم أعمال النهار!..

حتى آوى إلى حجرتى أصغى إلى أسطوانة «عصفور النار» ل «سترافنسكى»... لقد أخطأتَ يا «أندريه» كما أخطأتُ أنا من قبل؛ إذ تظن حياة العمل والواقع قديرة على انتزاع حب الجمال من أنفسنا، وأسفاه!..

إن كل ما كَسَبَتْه نَفْسى من اتصالها بالفن الحق، كان حقيقيا خالصاً، لازيف فيه.. إنى أعيش في الظاهر؛ كما يعيش الناس في هذه البلاد.. أما في الباطن فما زالت لى آلهتى وعقائدى ومثلى العليا.. كل آلامى مرجعها هذا التناقض بين حياتى الظاهرة وحياتى الباطنة!..

إنى أصر على مراسلتك هذا الإصرار؛ لأنك الوحيد الذي يَعْمر هذه الحياة الثانية.. إنها صحراء أصيح في أرجائها، وأنت وحدك الذي يسمع رجع الصدى!..

آه!..

إنك لن تقدِّر آلام من يعيش في غير عصره؛ فأنت أوربى يعيش في أوربا.. إنك لم ترزأ بعد بالحياة بين ناس لا يتصل إحساسهم الفنى بإحساسك!..

لقد كان مجرد حضورى في قاعة كونسير «بليل» أو «كولون»، يجعل بينى وبين كل فرد حاضر فرنسى أو روسى أو ألمانى صلة تكاد تكون صلة المواطن بالمواطن!..

لقد كانت أيدينا تنطلق بالتصفيق لدى دخول موسيقى مثل «فورتفانجلر» في شبه حركةواحدة، كأن مراكز الإحساس فينا جميعاً متصلة بسلك واحد!..

لقد كنا في وطن ثقافى واحد.. لقد كانت تظلنا أنا والفرنسى والروسى والألمانى والمجرى والإنجليزى سماء واحدة.. هى سماء الحضارة في هذا القرن!..

من أجل ذلك كنت أطالع كل ما كتب عن عصبة الأمم وكلى أمل، وما قيل عن «الدولية» واتجاهاتها الإنسانية وكلى رجاء.. ثم إنى فوق ذلك وبعد ذلك كنت أعيش.. أعيش الحياتين.. بل حياة واحدة؛ إذا لم تكن بى حاجة إلى حياة ظاهرة وحياة باطنة!..

قد تسألنى: أليس في «مصر» طبقة من المستنيرين؟.. نعم في مصر طبقة مستنيرة فيها كثيرون عاشوا في أوربا، وعرفوا الثقافة الأوربية، وفيهم من يعرف الفن الأوربى ويتكلم عن المصورين والتصوير، ومن يتكلم حتى عن «برامس» و«باخ» و«هاندل»!..

ولكن النادر أن تجد بين هؤلاء من عرف أن الثقافة الحقيقية شيء، والكلام فيها شيء آخر!..

وقليل من بين هؤلاء من أدرك أن الثقافة العقلية وحدها ليست كل الثقافة، وأن الثقافة الكاملة شيء أوسع من ذلك بكثير. إن أكثر هؤلاء المتكلمين في الموسيقى والتصوير والفنون يعرفونها برءوسهم، ولا يدركونها بحواسهم!..

إن المطلوب للثقافة ليس مجرد المعرفة بل الإحساس والتذوق، والتغذى بمختلف الفنون.. ما قيمة الكلام عن «بيتهوفن» إذا كانت أعماله لا تهز نفسك هزّا؟.. وما معنى الحديث في «رافاييل» أو «مملنج» أو «روبانس» أو «بوتيتشيللى» إذا كانت صورهم لا تعمر رءوسنا ليل نهار، وتحدث ألوانهم وأصباغهم في نفوسنا الأحداث؟!..

الثقافة ليست كلاما نملأ به الرءوس، ولكنها يقظة الملكات كلها والحواس!..

إذا سلمت بقولى هذا، فلا أبالغ إذا قلت لك إنه ليس في مصر عدد أصابع اليدين من المثقفين!..

الرسالة العشرون

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

إنى الآن غارق في الأدب العربى... أريد أن أدرس قضيته من أساسها... أريد أن أعيد النظر في أمر اللغة العربية ـ لغتى ـ وأكشف أسرارها وأضع أصبعى على مواطن ضعفها وقوتها.. هذا الوقت هو خير وقت أستطيع فيه أن أرى وأميز وأحسن «الحكم»، فلى عينان قد طافتا ـ منذ أمد ليس بالبعيد ـ بمختلف الآداب العالمية. ولقد نجحت فكرتى حقّا!..

إنى أقرأ نصوص هذا الأدب في عصوره المتعاقبة بعين جديدة، عين عامرة بالصور، حافلة بالمقارنات، وبنفس رحيمة عادلة صابرة، تلتمس العلل والأسباب، وتطيل التريث والبحث، قبل أن تصدر الأحكام!..

قبل كل شيء أحب أن أقول لك إن أولئك الذين علمونا اللغة العربية، في المدارس الابتدائية والثانوية، كانوا يجهلون لا معنى اللغة العربية وحدها، بل أيضًا معنى اللغة على الإطلاق.. إنك لن تجد مستنيراً في مصر لا يقول لك إن اللغة العربية ـ للأسف ـ قاصرة عن التعبير في شتى ضروب العلوم والفلسفة والتفكير العالى، بل منهم من يقول إنها ليست لغة تفكير، إنما هى لغة بهرج وتنميق. لماذا؟ السبب بسيط: هو أن النماذج التي وضعت

في أيدينا ـ ونحن صغار ـ للبلاغة في اللغة العربية كانت كتبًا غثة المعنى متكلفة المبنى، لو كَتَبَ بها شخص اليوم لأثار سخرية الناس!..

نعم.. إنهم يعلموننا في المدرسة لغة إذا استعملناها في الحياة ضحك منا الناس!..

من ذا يستطيع بعد انتهاء دراسته أن يكتب رسالة على نمط «عبدالحميد الكاتب»، أو مقالا أو بحثًا أو تقريراً على طريقة «الحريرى» دون أن يتعرض لسخرية الساخرين؟!..

ليس من اليسير أن أطلعك أو أترجم لك مثل هذا الأسلوب «النموذجى»!..

ولكنى أقول لك إنه أسلوب يستخدم اللغة استخدام الجوارى للعود في مجالس الأنس والسكر بقصور «هارون الرشيد»!..

أسلوب غايته قبل كل شيء أن يبهر السمع النائم ويطرب الأذن المسترخية!..

لست أدرى!..

أيجوز أن نجعل لغة من اللغات وسيلة لهو وأداة براعة؛ كفنون المغنين، وألعاب الحواة، أم أن اللغة أداة يسيرة لنقل الأفكار النبيلة؟.. إنى أفهم أن يُضْرَب مثل هذا الأسلوب مثلا للضعف والسقم، لا للسلامة والبلاغة، فإن التكلف أبرز عيوب الفن. كان «جويو» يقول: إن الرشاقة في فن الرقص هى أداء الحركة الجثمانية العسيرة، دون تكلف يشعرك بما بذل فيها من مجهود.. تلك أولى خصائص الأسلوب السليم في كل فن.. حتى الحاوى الماهر هو ذلك الذي يخفى عن الأعين مهارته، ويحدث الأعاجيب في جَوٍّ من البساطة والبراءة.. لعل الكاتب الوحيد الذي ضربوه للطلاب مثلا فصدقوا هو «ابن المقفع» في ترجمته «كليلة ودمنة». هذا كاتب تصنّع في أسلوبه هو

الآخر ولكن بخفة ومهارة، وطلاه وجمله ولكن بذوق وكياسة، فلم يَبْدُ عليه سماجة التكلف ولا ثقل الصناعة!..

إنه ذلك الحاوى البارع!..

أو تلك الحسناء الذكية التي تطلى وجهها بالأصباغ، ثم تمسح أثرها الصارخ، فتظهر وكأن نضارتها نضارة الأصل والفطرة. إن «ابن المقفع» يَجهد في أسلوبه ليخفى أثر الجهد!..

إنه تلك الراقصة الرائعة التي تخفى حركاتها العسيرة فلا تبدو لنا منها إلا تموجات رشيقة يسيرة!..

هذا الكاتب هو على كل حال مثل طيب للصناعة في الكتابة!..

على أنك إذا أردت أن تعرف حقّا جلال اللغة العربية؛ في بساطتها وسيرها قدما نحو الغرض: فاقرأها عند الفلاسفة والمؤرخين العرب!..

أولئك عندهم حقيقة ما يقولون؛ فهم لا يضيّعون أوقاتهم وأوقاتنا في العبث اللفظى والطلاء السطحى؛ إنما هم يحدِّثوننا في شئون فكرية واجتماعية وأخلاقية ودينية في لغة سهلة مستقيمة، لا لعب فيها ولا لهو ولا ادعاء.. إنى لأدهش كيف أن مؤلفين مثل «ابن خلدون» و«الطبرى» و«ابن رشد» «والغزالى» لم يعرضوا علينا قط في دراساتنا للأدب العربى بالمدارس؟!..

كيف نعرف لغة بدون أن نطالع فلاسفتها ومؤرخيها؟.. أتستطيع معرفة الفكر اللاتينى دون أن نقرأ «سنيكا» و«مارك أوريل» و«تيتوس ليفيوس» و«كورنليوس تاسيت»؟!..

لو أنه عرضت علينا صفحة واحدة مع شرحها، لكل فيلسوف بارز ومؤرخ مشهور من فلاسفة العرب ومؤرخيهم؛ ـ لتغير رأى أكثر المستنيرين عندنا في اللغة العربية، وقدرتها على التعبير عن أدق الأفكار وأعلاها وأعمقها

وأنبلها. أو ليس بهذه اللغة نقل «ابن رشد» و«ابن سينا» أعمق آراء فلاسفة الإغريق إلى أوربا المتعطشة للمعرفة؟!..

أنتم معشر الفرنسيين فعلتم ذلك في تدريس الأدب الفرنسى!..

ما من كتاب مدرسى ـ صغر أو كبر ـ لا يُذْكَر فيه نماذج من أسلوب «مونتانى» الفلسفى، وأسلوب «روسو» الاجتماعى و«بوسويه» الدينى و«فولتير» التاريخى؛ بل حتى أسلوب «موليير» الفكاهى أحيانًا إلى حد التهريج!..

ذلك أن المدارس الفرنسية أدركت أن تدريس اللغة يجب أن يشمل كل نواحى التعبير بها.. أما قَصْرُ تعليمها على نماذج البلاغة اللفظية الجوفاء؛ فهو امتهان لكرامة اللغة، وانتقاص من قدرتها على الأداء!..

في العربية كاتب متعدد النواحى، له باع طويل في الجد والهزل، هو «الجاحظ»!..

هذا أيضًا لم نقرأ له سطرا في المدارس.. كل كاتب عربى بسيط الأسلوب نافع لنا في الحياة يُقصونه عنا إقصاء بحجة أنه غير بليغ!..

ويأتون إلينا بالكاتب الذي لا ينفع في حياتنا إلا نموذجا لإثارة السخرية. حتى الشعر وهو مفخرة اللغة العربية، الشعر الذي كان يجب أن ترى فيه نفوسنا المتفتحة أول لون من ألوان الفن.. ماذا انتخبوا لنا منه؟.. قصائد المواعظ والحكم!..

هنالك حقّا أنواع من الموعظة والحكمة يعرف الشاعر الحق كيف يُلْبِسها ثوبًا من الصور الحسية والذهنية، ترفعها إلى مرتبة الفن العالى... كما فعل «أبو العلاء» و«المتنبى» و«النابغة الذبيانى» في بعض «قصائدهم»، ولكن الفرز والتمييز والتخير في هذا الباب يحتاج إلى حاسة فنية لا يملكها القائمون بهذا العمل.. حتى الشعر الموسيقى والشعر التصويرى الذي عرضوا

علينا بعض نماذجه ـ في أعمال «البحترى» و«ابن الرومى» على الأخص ـ لم يكن من خير آثارهما.. ليس كل شعر فنا عاليًا؛ لأنه يعظ أو يُصوِّر أو يُرنِّم!..

فالشعر الحق هو شيء أبعد كثيرًا من مجرد إصابة الأهداف الظاهرة، أو تحقيق الأغراض المباشرة، بل ربما انحط شعر في عرف الفن العالى؛ لأنه اقتصر على صياغة حكمة أو تصوير منظر أو إحداث جَرْس.. إنما الشعر الحق قد يتوسل بهذه الأشياء لبلوغ مأرب أسمى: هو الارتفاع بالناس إلى سحب لا تُبلَغ والرحيل بهم إلى عوالم لا تنظر!..

هو أن يريهم من خلال كلماته البسيطة ووسائله البادية أشياء لم تكن بادية ولا طافية، في محيط ضمائرهم الواعية.. هو بالاختصار ذلك السحر الذي يوسع ذاتية الناس، فيرون أبعد مما ترى عيونهم، ويسمعون أكثر مما تسمع آذانهم، ويَعُون أعمق مما تعى عقولهم.. هذا هو الشعر.. وهذا هو المقصود من كلمة «الشعر» في إطلاقها على الفنون كافة!..

ما من فن عظيم بغير شعر، أى بغير تلك المادة السحرية التي تجعل الناس يدركون بالأثر الفنى، مالا يدركون بحواسهم وملكاتهم!..

لقد أثقلتُ عليك يا «أندريه» بهذا الحديث في موضوع لا يعنيك كثيرًا، ولكن مَن غيرك أبثه كل خواطرى...؟ تحمل!..

الرسالة الحادية والعشرون

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

إمعانى في بحوث الأدب العربى اليوم يجعلنى غير صالح للحديث في شيء آخر. ولقد فرغت من مسألة اللغة فإذا مشكلة أخرى تقوم أمامى، هى أن الأدب العربى ذاته من حيث هو خَلْق فنى يبدو لى ناقص التكوين!..

والسبب في ذلك بسيط أيضًا: إذا تأملتَ الآداب القديمة كلها، وجدتَ أنها قد عاصرتْها فنون كبرى!..

خذ مثلا «مصر القديمة» و«الهند» و«الإغريق» و«الرومان» إلخ.. لقد كانت المعابد العظيمة والتماثيل الرائعة، خليقة أن يعاصرها أدب يضارعها في قوة البناء ودقة التركيب وروعة الفن: (الملاحم والتمثيل والقصص).. ولكن الذي حدث في تاريخ الأدب العربى كان غير ذلك.. لقد نشأت لغة نضرة زاهرة، في بيئة قاحلة وسط الصحراء!..

لقد كان أقصى ما عاصر لغة «امرئ القيس» أو «لبيد» أو «زهير» من مظاهر الفنون الأخرى تلك المسوخ والتهاويل لآلهة من الحجر!..

أطلقوا عليها «الهبل الكبير» و«الهبل الصغير» و«العزى» و«اللات» إلخ.. لا أحسب أحداً يجرؤ أن ينسبها إلى الفن في قليل أو كثير!..

إنه حقّا لمن مفاخر اللغة العربية أن تَبْرُزَ وحدها هذا البروز بين الرمال؛ كأنها عَرار أو أقحوان، ولعل الفضل في ذلك للشعر؛ فالشعر زهر قد ينبت في الخلاء، أما النثر فيحتاج في نموه إلى العمران، ولكن جاء العمران بعد ذلك بظهور الإسلام، وتكونت حضارة إسلامية واسعة الأرجاء، فأقيمت المساجد الجميلة على أنقاض الهياكل القديمة، وشيدت القصور وملئت بالبدائع والطرائف، وتقدمت الصناعات، وازدهرت الفنون، وابتلعت المدنية الإسلامية في جوفها كثيراً من المدنيات.. ومع ذلك لم يحاول الأدب العربى أن يزيد في قوالب نثره، أو أن يساير تلك الفنون المعاصرة، حتى بدا للأجيال اللاحقة في ذلك الفقر الظاهر!..

والواقع أن الأدب العربى الإنشائى لا يختال للأنظار إلا في ثوبين معروفين: الرسائل والمقامات!..

والمقامات أعمال قصصية، قُصد بها سرد حكاية وتصوير أشخاص، ولكن الإغراق في الوشى اللفظى، والاحتفال بالوضع اللغوى؛ ـ صرف همّ الكاتب عن التعمق في التحليل، والإضافة في السرد، والإجادة في البناء؛ فالأدب العربى الإنشائى قد عنى باللفظ أكثر مما يجب. ولم يشأ أن ينزل عن تكلّفه الذي يعتبره فصاحة وبلاغة؛ ليصور ما يجيش في نفس الشعب من إحساس، ولا ما يهيجه من خيال!..

وهنا حدث أمر عجيب!..

إن روح الشعب لا يقهر!..

هذا الشعب في عصور الحضارة الإسلامية المختلفة قد تعطش للون جديد من الأدب، غير لون البداوة الأولى، لون من الأدب مستمد من إحساسه هو بالحياة الجديدة المتطورة المتغيرة!..

أدب جديد قائم على فن مشابه.. ومساير للفنون الزاهرة المعاصرة، التي يراها بعينه.. ويهيم في مراميها بخياله!..

فلما لم يشأ أدباء الفصحى أن يمدوا الناس بحاجتهم، لجأ الناس إلى أدباء من بينهم، لا يملكون أداة اللغة، ولا جمال الشكل، ولكن يملكون السليقة الفنية وروح الخلق.. وهنا ظهر الأدب الشعبى!..

فما ظهور الأدب الشعبى أحيانًا إلا علامةُ قصورِ أو تقصير من الأدب الرسمى، أو صرخة احتجاج على جمود الفصحاء!..

هكذا ظهر القصص الشعبى في صورة «عنترة» و«مجنون ليلى» و«كُثَيِّر عزة».. إلخ.. وسارت الحضارة الإسلامية فسار معها الأدب الخيالى الاجتماعى الشعبى فإذا نحن أمام عمل فنى رائع، هو «ألف ليلة وليلة»؛ ثم ثبت في كل شعب من شعوب الإسلام قصصه الذي يطبعه بطابع عصره، فكان في مصر قصة «أبو زيد الهلالى» و«سيف بن ذى يزن» و«الظاهر بيبرس» إلخ... ومن الغريب أنك إذا تأملت «التصميم» الفنى والبناء الروائى لهذا الأدب الشعبى، وجدته ـ من حيث الفن لا اللغة ـ هو السائر في الطريق الصحيح محاذيًا تلك الفنون الجديدة التي قامت بقيام الحضارة الجديدة، فلقد كان من المستغرب حقّا أن الباحث يرى حضارة إسلامية عظيمة ذات فنون زاهرة وعلوم راقية، ولا يجد في أدبها أثرًا إنشائيّا مثل «الشاهنامة» أو «الرامايانة» أو «الإلياذة» أو «كليلة ودمنة» ... إلخ.. حتى كادت العقلية الإسلامية تتهم بعقمها، ولكن الأدب الشعبى الإسلامى صحح الوضع أمام التاريخ العلمى، وأثبت أن الحضارة الإسلامية سارت في مجراها الطبيعى، مع هذا الفارق: وهو أنه في الحضارات الأخرى الهندية أو الفارسية أو الإغريقية، كان خاصة الشعراء والأدباء هم الخالقين لتلك الآثار... أما في حضارة الإسلام؛ فقد تخلى الخاصة عن بعض هذه المهمة لعامة أدباء الشعب وشعرائه، ووقفوا بعيدين عن كل تغيير أو ابتكار... حتى القرآن ما حاولوا أن ينتفعوا

به انتفاعا فنيا.. لقد أتى القرآن بجديد في فن الكتابة: لا اللغة وحدها، بل القصص... لقد استخدم الفن القصصى في التعبير عن المرامى الدينية السامية، ولكن المدهش أن الأدب العربى لم ير في القرآن إلا نموذجا لغويّا.. ولم ير فيه النموذج الفنى!..

فلم يخطر له استلهام قصصه، أو الاسترشاد بها، أو استغلالها استغلالا فنيّا مستفيضًا!..

إن وحى الأدب العربى لم يرد أن يتحرك!..

لا إلى أعلى ولا إلى أسفل، لا نحو القرآن، ولا نحو الشعب... ومن الإنصاف أن أستثنى واحداً هو «الجاحظ»... إن هذا الكاتب شعر فيما يبدو لى بالغلطة، فسلك مسلكًا آخر.. ونزل إلى الشعب يستوحيه، ويصور أسواقه، وبخلاءه، ولصوصه، وتجاره، وشرفاءه، وخبثاءه!..

في أسلوب بسيط حى.. يعد مثلا طيباً للنثر التصويرى في عصور الحضارة والعمران!..

وهو بعينه الأسلوب الذي أثار على «الجاحظ» المسكين نقد المتنطعين من أدباء عصره، فرموه بالعامية والركاكة والابتذال!..

وأريد أن أستثنى أيضًا بعض الجانب الفنى لمقامات «بديع الزمان»... فهو من حيث رسم أشخاصه، وتصوير المجتمع في عصره، يكاد يعطينا أحيانًا صوراً ناطقة على صغرها.. تذكرنى بصور «المنياتور» الفارسى... ولم يفسد هذا الأثر الفنى إلا أسلوبه اللغوى؛ فلو أنه وُضِع بلغة «الجاحظ» في بخلائه، لكان أدنى إلى الكمال.. ولكن هذا الأثر لم يكتب فيما يظهر إلا لإبراز رصانة اللغة، وثراء اللفظ، وبراعة السجع... أما الفن فلم يخطر للكاتب على بال!..

والواقع أن تباهى أدباء العربية بالثروة اللفظية والمهارة اللغوية كاد يقتل النثر العربى نفسه، فلم ينقذه من هذا المصير ـ كما قلت لك ـ غير طائفة الفلاسفة، وفقهاء الدين، والمؤرخين، ومن شابههم من الباحثين الجادين؛ وأن مؤرخى الأدب أو رواته على الخصوص كان لهم أعظم الفضل في تيسير اللغة العربية، وإلباسها حلة نضرة، دون الالتجاء إلى التصنع الممجوج: «الأغانى»، و«العقد الفريد»، «نهاية الأرب»، «الأمالى»، «النوادر»، «البيان والتبيين»... إلخ.. على أننا بعد ذلك إذا طرحنا جانبًا أعمال مؤرخى الأدب ورواة أخباره، على أهميتها وسلاسة لغتها، وأردنا أن نبحث عن فن أدبى يُعَدّ في ذاته خلقًا إنشائيّا فنيّا؛ ـ لما وجدنا شيئًا يضارع الأدب الشعبى في: «ألف ليلة وليلة» و«عنترة» و«مجنون ليلى» و«أبى زيد الهلالى»...إلخ. فهذه الآثار، على الرغم من انعدام الروعة اللغوية فيها، وضياع الجانب الشكلى اللفظى؛ ـ قد استطاعت أن تؤثر بمجرد فنها؛ ذلك أن القوة الخالقة في روح الشعب لم تضل لحظة عن طريقها إلى الخلق الفنى، ومع ذلك فقد ظل الأدب الشعبى حتى اليوم غير معترف به في تاريخ الأدب العربى، بل إن أثرًا خالدًا مثل «ألف ليلة» اعترفت به اليوم كل أمم العالم.. ونُقِلَتْ قصصه إلى كل لغة، ووضعت في كل يد.. حتى أيدى الأطفال.. (تذكرت الآن أن ولدك الصغير «جانو» أدهشنى ـ يوم قابلته أول مرة في «كوربفوا»، فقص علىّ أقصوصة «علاء الدين والمصباح» على نحو أثار «عجبى»)... هذا الأثر الفنى المشرف لم يعترف به أديب عربى اعترافًا صريحًا!..

لقد انطوت قرون، وما يزال هذا السد قائمًا؛ كأنه سد «الصين» بين النثر العربى؛ بسجعه، وبلاغته المصطنعة، وبين خيال الشعب ورغباته وآماله... لو أن أدباء اللغة الفصحى هدموا هذا السد من قديم، ونزلوا عن بعض جمودهم، وسايروا تقدم الفنون في زمانهم، وعبروا عن مطالب عصرهم وشعبهم، لكان الأدب العربى اليوم في مقدمة الآداب العالمية؛ فليس الروس

هم أساتذة القصة، ولا الإنجليز، ولا الفرنسيون.. بل نحن ـ بما لدينا من قرآن عرف القصص، وما خلقنا في مجتمعنا من أشباه «عنترة» و«ألف ليلة وليلة»، وما وضعنا في لغتنا من «مقامات» تُعد أساسًا لفن الأقصوصة ـ لأحقٌ مَن يزعم بأننا أساتذة هذا الفن الروائى!..

لكن واأسفاه!..

هم أولئك الجامدون الذين وقفوا حيث هم، وتركوا لغيرهم تلك الكنوز، يغترفون منها ويربون عليها.. إن هذا الذي أسميه سدّا بين الجامدين والمجددين!..

أو هذا السد بين الأموات والأحياء... كان دائمًا موجودًا في تاريخ كل لغة!..

ألا تذكر «دانتى»، وكيف حطم هذا السد، يوم أصر على أن يكتب «الكوميديا الإلهية» لا باللاتينية ـ لغة العلماء في عصره ـ بل بالإيطالية لغة الناس في زمانه.. و«مسترال» يوم وضع ملحمته الشعرية الرائعة «ميراى» بلغة الريف الفرنسى، وهى لغة لم أستطع فهمها، مما ألجأنى إلى قراءة ملحمته في ترجمتها الفرنسية العصرية!..

ومع ذلك لم تحل لغة الريف دون تسنم ذلك الشاعر قمة المجد، واعتباره من أكبر شعراء فرنسا والعالم: لأن اللغة لم تكن يوما حائلا في أوربا دون تقدير الأثر الفنى في ذاته... أما عندنا فهى حائل دون مجرد الاقتراب منه؛ كأنما هو شيء مزر بمقام فضلاء الأدباء... لهذا لم تجد أديبًا عربيًا، جرؤ على النظر في آثارنا الشعبية الرائعة من حيث هى فن وخلق، طارحا مسألة لغتها جانبًا، متغاضيًا عما في هذه اللغة من إسفاف وتصور وعدم كفاية!..

لقد رضى الفضلاء أن ينظروا في تاريخ «الجبرتى»، وهو تقريباً باللغة العامية، ولم يرضوا أن ينظروا في «ألف ليلة وليلة» وهو أسلم لغة في نظرى من كتاب «الجبرتى»، ولكن السبب عندهم: أن ذلك تاريخ، وهذا أدب، والأدب في عرفهم مرادف للغة .. فاللغة... اللغة... هى لدينا شبح الأدباء المخيف... نحن عبيد ذلك الميراث من الألفاظ والعبارات والتراكيب التي وجدناها داخل صناديق المعاجم العتيقة، وكتب اللغة القديمة!..

إننا ننظر فيها بحرص، خشية أن ينفذ إليها نور هذا العصر أو نسيم هذا الزمن، فيعبث بنسيج عنكبوتها المقدس!..

يا لشبح القدماء المروع!..

يا لشبح الأموات، الذي يرهب كل من يعتبر اللغة كائناً حيّا يتغير ويتطور، وكل من يحاول التصرف فيها طبقاً لمطالب العصر وروح الزمن!..

إن اعتصام الموتى ومن معهم خلف ذلك السد الهائل، الذي يقصيهم عن عالم الأحياء، بنزعاته الجديدة، وأذواقه الخاصة، ومقاييسه الشخصية ـ كان هو السبب في قيام حركات التجديد والإصلاح، والنهضة رافعة معاولها في وجه ذلك السد... كل عملية تجديد وبعث ليست سوى تحطيم السد بين عالم الأموات وعالم الأحياء!..

أعتقد أن «الجاحظ» في مسألة اللغة والتصوير الشعبى وقف بعض الشىء موقف «دانتى»، وحاول أن يحطم ذلك السد قليلا.. ولو أن الأمور سارت بعد ذلك سيرها الطبيعى طبقاً لشريعة التطور لتقدمت اللغة العربية، منذ زمن بعيد. ولكن الغريب أن نجد كاتباً في هذا العصر مثل «المويلحى» عندما أراد أن يصور الشعب المصرى ـ وهو اتجاه طيب ـ في كتابه «عيسى بن هشام»؛ لم يستعمل لغة «الجاحظ»، ولا حتى لغة «ابن المقفع» بل استخدم لغة الحريرى وبديع الزمان!..

بماذا نفسر ذلك؟.. إلا أن يكون هذا هو الاختيار الطبيعى الجدير بعصر انتكاس وانحطاط!..

على أن البوادر تدل اليوم على نزعة جديدة في أسلوب الكتابة.. وإن كانت القوالب الأدبية لم تتنوع كثيراً.. ولعل باب «المقالة» هو أبرزها مكانا، وأسرعها سيراً في طريق التطور والتجديد... غير أن الشعور العام بضرورة التنويع في الأساليب والأبواب، يسرى الآن في الطبقات المستنيرة!..

الرسالة الثانية والعشرون

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

إنى أضع دائمًا نصب عينى هذه المصادر الثلاثة أستلهمها فنيّا: «القرآن» و«ألف ليلة وليلة»، و«الشعب» أو «المجتمع»!..

ولكن الأسلوب!..

الأسلوب!..

لطالما شغلتك معى بالحديث عن الأسلوب الفنى الذي أبحث عنه.. أين أجده أخيرًا؟... ومع ذلك في وهمى أنه قد يكون على مقربة منى دون أن أشعر!..

لم لا يكون هو ذلك «الحوار» الذي أنفقت في ممارسته وقتًا طويلا؟... إنه «القالب» الذي بدأت معالجته ـ كما تعلم ـ قبل نزوحى إلى «أوربا»، ومن أجله انصرفت حتى عن الكتابة السياسية «المحترمة» في نظر أهل بلادى!..

لا يمكن أن يكون هذا الوقت والجهد قد أنْفِقَا عبثًا... لم لا تقول إن «الحوار» هو أسلوبى الذي أتحرق بحثًا عنه؟.. لقد كان هو ـ كما تعلم ـ الناحية التي استرعت نظر من اطلع على مخطوطاتى في فرنسا من أدباء

وفنانين... آه ... لو أمكن إدخال «الحوار» قالبًا أدبيًا وبابا مرعيًا في الأدب العربى!..

* * *

(حاشية) أتدرى يا «أندريه» لماذا لا أتوقع نجاحًا؟... لأن التمثيل في بلادنا أو «التشخيص» هو حتى اليوم بمعزل عن «الأدب»، فالرواية التمثيلية عندنا شيء يمثّل ولا يقرأ، وربما كان للأدب عذره... فالتمثيلية لدينا لا يمكن أن تقرأ، لأنها قائمة على مجرد الحوادث المثيرة والحركات والمفاجآت!..

ولا تعرف بعد الحوار القائم على دعائم الفكر والأدب والفلسفة... لكن إذا وجد هذا الحوار الأدبى الفكرى الصالح للمطالعة.. فماذا ترى يكون موقف الأدب العربى منه؟؟..

الرسالة الثالثة والعشرون

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

لا يزعجك سيل خطاباتى المتدفق عليك؛ فإنى أذكر قولك إن رسائلى تنفعك أحيانا «لتلف» فيها فرشاة أسنانك وأدوات حلاقتك،وأزرار قميصك، ومختلف حوائجك الصغيرة في أسفارك، بين «ليل» و«باريس»، فما يضيرك إذن استلام الخطابات الكثيرة؟..ما دمت لا تجيب ولا تتكلف شيئًا، لعل لكتابتى إليك اليوم سببًا واضحًا معقولاً: فاليوم هو عيدنا الكبير، والموسيقى تعزف بالأبواب طالبة ما نسميه«العيدية» والأراجيح منصوبة، والصبيان والأطفال يتصايحون، وينفخون في المزامير الصغيرة بملابسهم الحمراء القانية، والصفراء الفاقعة، والخضراء السندسية.. والجميع يقول بعضهم لبعض:«كل عام وأنتم بخير» فلماذا لا أقول لك أنت أيضًا هذه الجملة؟.. ثم هنالك سبب آخر، هو أننا في هذا العيد نضحى بخروف.. ولقد أكلنا يا سيدى اليوم ضلع خروف محمر. وو الله لقد تذكرتك ولعلك أحسست اللحم المحمر في بطنك، ولقد أكلته باسمك كما أكلت أنت باسمى في«ليل» «دستة» المحار الأخضر، الذي أحبه، لكن وا أسفاه!..

كان ذلك فيما مضى.. أما اليوم فأنا أحس ببطنى«الزفت والقطران». فماذا تراك الآن تأكل باسمى؟!..

لست أدرى لماذا أتذكر الآن كثيرا موقفى معك في «باريس» قبيل سفرك إلى« ليل»؟! فقد كان بخلى مخجلاً وقسوتى شديدة، إذ رفضت إقراضك كل ما كنت محتاجا إليه، وأنا على علم تام بأنى لن أدعك حتى أقرضك ما شئت، ولكنى أردت تعذيبك، فجعلت ألوِّح لك بالمحفظة، وجعلتك تتبعنى ذليلاً في كل مكان، حتى قهوة«مونمارتر». إنها كانت ليلة عجيبة، أتذكرها يا«أندريه»؟.. لقد قلت لك: لا نقود إلا بعد سهرة ممتعة، فقد تكون هى سهرة الوداع...(وقد كانت)!..

وعهدت إليك بمهمة اقتناص ظبيتين، لما لك من خبرة في هذه الأمور، فجلسنا في ذلك المشرب المائج بالظباء إلى قبيل الفجر، نتجاذب أطراف الفلسفة والفنون، وجرفنا الحديث في«ليبنتز» و«كانْت» و«ديكارت» و«برجسون» و«نظريةالجمال» في الفلسفتين: الألمانية و الفرنسية، فنسينا ما كنا قد جئنا لأجله، وأغلقت المشارب، وأطفئت الأنوار، فقمنا خائبين نتعثر في أذيال عاهرات الحىّ بائرات آخر الليل، ونحن نسأل لنفسينا السلامة من شر«الأباش » الأوباش!..

وفجأة إذا بك تشعر كأن ذراعا تضرب في ظهرك، فالتفتّ مذعورا فإذا هى عاهر شوهاء تستوقفك، فخلصت نفسك بعد جهد، وقد هدأ روعك بعض الشىء، وقلت لى:«كنت أحسبها لصًا»!..

وفاتت مواعيد«المترو» ووقفت المواصلات، فلم يكن بد من تمضية ما بقى من الليل في حجرتى القريبة بشارع«روششوار». وهى جحر فأر، وكلها ليست غير سرير وتحت سرير، فقسمناها بيننا بالقرعة. فكان حظك أن تحتل أنت الأرض تحت السرير، وما كدت أتمدد على فراشى حتى صحت بى أن لا نوم يرجى لى، إلا إذا ظفرت أنت بمبلغ القرض قبل النوم. فمنعنى النعاس من مناقشتك الحساب، والاستمرار في تعذيبك!..

فدفعت إليك المبلغ وأنا نصف يقظان، ونمت واستغرقت في النوم، فلم أنتبه إلا بعض انتباه إليك وأنت تحاول إصلاح جرس«المنبه» المكسور ليوقظك في منتصف السابعة. ولست أدرى بعد ذلك:هل طاوع«المنبه» الضيف الكريم، فأيقظه في الموعد المطلوب؟.. كل علمى أنك استيقظت مبكرا مثل العفريت، وملأت الحجرة جلبة وضجيجا: تارة تفتح الأدراج بعنف للبحث عن منشفة وجه نظيفة، وتارة تشد مسن آلة الحلاقة، وقد وضعت فيها سلاحا جديدا هو الوحيد الذي كنت أدخره لأيام نزهتى، وتارة تزيل الغبار عن ثيابك وقبعتك بصوت كالرعد.. وأخيرا.. سمعت باب الحجرة يفتح ويغلق.. ثم.. لم أرك بعدئذ قط!..

الرسالة الرابعة والعشرون

«الإسكندرية» في..

عزيزى«أندريه» !..

أهنئك أولاً بعودتك إلى«باريس»، ولو أن خبر مرض« جرمين» أحزننى غاية الحزن، وإنى لأوصيك أن تتبع الحيطة في علاجها، وأن تعنى بها العناية كلها، مهما يكلفك ذلك من نفقات!..

إن رسائلك يا «أندريه» تفتح أمامى أبواب موضوعات، إذا طرقتها فلن أستطيع الخروج منها قبل أن أملأ صفحات... جاء في خطابك السابق كلام طويل عن نفسى، وصفائها وعدم صفائها: أمر لم أرد عليك فيه بنعم أو لا، على أنى حسبت أنى أجبت عنه في موضع من المواضع، أو ربما كانت إجابتى في شيء آخر!..

إن مصيبتى هى في عجزى عن إخراج ما في نفسى كما تصورته أول مرة. إن الفكرة لتتكون في نفسى، وتنمو وتمتد، وتتخذ شكلاً منتظما في رأسى، بل إنى لأنفق أياماً في بناء الأشخاص في مخيلتى، وترديد ما يقولون من كلام، وما يتحاورون به من حوار، ولا يبقى إلا أن أمسك بالقلم لأضع على الورق كل هذه الحياة الزاخرة النابضة، فإذا .. واأسفاه!..

شيء آخر باهت بارد كالجثمان الهامد هو الذي يخرج... عمل واحد استطاع أن ينجو من هذه النهاية: عمل دفعتنى نفسى إلى كتابته، دون أن

أستجمع في رأسى شيئًا من تفاصيله، أو أستحضر في خاطرى دقائقه وأجزاءه... ومن الغريب أن الأشخاص تكونت وتلونت، وكأنها تخلق وجودها بذاتها. وسارت القصة بأشخاصها وبى إلى حيث لا أدرى. إلى أن أخبرتنى الأشخاص أنفسها بالنهاية المحتومة التي لا بد لها من أن تنتهى إليها!..

لماذا أكتب إليك كل هذا الهراء؟.. أنت الذي برهن لى في فترات على قلة اكتراثه بما أصنع، وبسخريته من آلامى وقلقى النفسى. وشكوكى وأزماتى!..

لطالما حرصت مع ذلك على إخفاء أغلب هذه الأشياء عنك. ولا تغضب علىّ؛ لقد شعرت في يوم من الأيام بأن صداقتنا لا ترتكز على التشابه، ولا الاتفاق ولا الاتحاد. لقد كنا طرفى نقيض؛ لم يكن لى حتى حق الإفضاء إليك بما يملأ كل كيانى الروحى!..

أتدرى ما هو هذا الشىء الذي يملأ كل كيانى الروحى؟.. هو حمى الخلق الفنى. لقد كنت أخشى استهزاءك بهذا الشىء المقدس عندى. إنى ماكنت أطلعك إلا على ما أطيق تعريضه لسخريته.. إنك ما كنت تستطيع أن تفهم ما كنت أنا فيه وقتذاك. لقد كنت أنت رجل «واقع».. أكثر مما ينبغى «لشاعر»... هل كان في مقدورك فهم تصرفاتى الجنونية في ذلك الحين؟... تصور أنى قضيت شهوراً أجهد ليل نهار في عمل أدبى جديد استغرق هو الآخر مئات الصفحات، ولم أفطن لنفسى إلا يوم جاءتنى تلك البرقية تدعونى إلى العودة إلى بلادى!..

كان في البرقية هذه العبارة: «احضر بأول مركب.. تعيينك تقرر!..

وتسلمت بعدئذ نقوداً للسفر، وخطابا يوضح لى فيه إمكان شغلى وظيفة بالنيابة العمومية المختلطة.. عندئذ شعرت بما يشعر به مَلَاك في السحب، وهو يهوى إلى الأرض!..

أنا!..أنا الذي يعيش في سماء الفن... يفكرون له في وظيفة من الوظائف؟!..

هؤلاء الناس قد جُنُّوا من غير شك!..

كيف يخطر على بالهم أن يوظفوا ملاكا من ملائكة السماء!..

وأعدت النظر في خطاب أبى الذي يقول فيه: إنه لا يرى حتى ذلك الوقت في بلادنا شخصًا انفرد بحرفة الأدب دون أن يكون له عمل آخر، هو عماد حياته وقوام عيشه... وقال: «إنه لا يصح القياس مطلقًا بما هو حاصل في أوربا... فإن الوقت لم يحن بعد في بلادنا لأن يضحى أحد بمستقبله في سبيل الأدب مثل هذه التضحية التي لا تدرك البلاد قيمتها ولا تشعر بها ولا بصاحبها». ولعلى طلبت إلى أهلى أكثر مما تحتمله الطبيعة الأبوية... وأردتهم أبطال قصص يأخذون الحياة كما أتخيلها أنا. هنا فقط تذكرت أول مرة مسألة «أكل العيش».. نعم.. ينبغى أن أكسب لقمتى على الأقل؛ فأنا مخلوق يأكل ويشرب. ولم يغب عن والدى كل ما يحتمل صدوره منى؛ فنص في خطابه: «لن أنفق عليك مليما واحدًا بعد الآن إذا أخذت المال المرسل للسفر، فصرفته في غير وجهته ولم تحضر، وضاعت الوظيفة بسببك».. ما العمل؟.. ومخططاتى الأدبية لم تتم... إنى في حاجة إلى عامين آخرين في هذا الجو الفنى؛ لأكمل عملى.. لقد تغلبت إلى حد ما على صعوبات الخلق والتكوين.. ولكن هناك صعوبة الأسلوب... إنى أكتب الفرنسية؛ فلابد لى من امتلاك ناصية الأسلوب الفرنسى، وبخاصة ذلك الأسلوب الحديث الذي يشبه موسيقى «سترافنسكى» الحديثة في تعدد ألوان عباراتها، وبريقها الخاطف بالصور، ومفرقعاتها المدوية بغريب المعانى، كأنها «صواريخ» الأعياد و«الكرنفالات»... لا بد لى من المكث «بباريس» عامين آخرين.. كيف السبيل إلى ذلك؟... هل يستطيع «أندريه» أن

يقاسمنى نصف نقوده، ونعيش في حجرة «منسارد» كحجرة «إيفان»، ونأكل أكل الكلاب من أجل «تخريفة» ل «توفيق الحكيم»؟!!..

هذا ما كان «أندريه» لا شك قائله!..

اطمئن يا «أندريه». لم يخطر ببالى قط خاطر كهذا... ربما كنت قد فكرت لحظة في البحث عن عمل بباريس، ولعلى فكرت في الالتجاء إليك؛ لتجد لى مكانًا صغيرًا في أحد المصانع، ولكنى طردت من رأسى هذه الفكرة على عجل؛ فأنا أعلم صعوبة الحصول على عمل حتى للفرنسى في زمن كثر فيه العمال المتعطلون! وإن وجد العمل فإن نفسى ليشق عليها مزاحمة الفرنسى في بلاده على انتزاع اللقمة من فيه...! وأخيرًا رأيت كما تعلم أن الأولى بى الإصغاء إلى نصح مسيو «هاب» وترك الكتابة بالفرنسية، ووضع عملى من جديد في لغتى ولغة بلادى التي لازمتنى منذ الصغر؛ فأنا في الحقيقة لا أريد مطلقًا أن أكون مثل أولئك «اللقطاء» من الأجانب الذين يلجئون إلى الفرنسية لأنهم لا يملكون لغة قومية عريقة.. إنما هو الإصرار العنيف على أن أنتزع من «باريس» ما يُقْنِعُنى بأنى حقّا قد أصبت من الأدب والفن شيئًا... وما يُقْنِع أهلى المساكين بأنى لم أضع حياتى سُدًى... لكأنى أردت من «باريس» شهادة أعود بها في موكب زملائى مع دكاترة الحقوق الراجعين بألقابهم العلمية الظافرة!..

لكن «باريس» خذلتنى... وأفهمتنى أن الخَلْق الفنى شيء آخر.. وأن الطريق إلى الفن طويل وعر.

الرسالة الخامسة والعشرون

«الإسكندرية» في..

عزيزى «أندريه»!..

أمس فقط طالعت رسالة قديمة منك، حينما كنتُ في «ليل» فإذا أنتَ تصفنى بأنى ذو قلب طيب صاف، بل أكثر من ذلك قلتَ: إنى من أولئك الأصدقاء السادرين في «الصداقة»!..

وتلك كلماتك بنصها... أتنكر الآن ما قلتَ؟.. لقد أخبرتُك أن هنالك أشياء أو على الأقل شيئًا واحدًا، لا أجرؤ على مصارحتك به؛ لأنى لا أطيق أن تتناوله بسخريتك.. شيء كنت أقدسه ـ كما قلت لك ـ بكل ما يستطيعه قلب شاب طائش!..

لم يكن الحب يا صديقى في «باريس» بالقوة التي تخرجنى عن التوازن!..

إنما الذي أخرجنى عن طورى هو حب الأدب، وحلت المطامع الأدبية عندى محل المطامع العاطفية، ولكل حب «عُذّال» كما نرى نحن أهل الشرق!..

وقد كنت أنت عندى «عاذل» الأدب ترمينى بالخيال والجنون؛ بحجة ردى إلى حظيرة العقل والواقع!..

لذلك ما كان ينبغى لى أن أطلعك على جنونى الأدبى. ومطامعى الأدبية إلا بمقدار... فهل ترانى راوغتك، أو أخفيت عنك شيئًا غير هذا الشىء؟.. ومع ذلك، دعنا من كل هذا... إنها باريس!..

إنها كانت باريس!..

آه ياعزيزى «أندريه»!..

إنها عندى كانت حُلما، وكل تصرفاتى فيها إنما هى من قبيل تصرفات الأحلام!..

ما كنت أسير بمنطق العقل قط، ولكن اعرفنى الآن!..

ها هنا، وأنا هادئ، وأنا في اليقظة!..

وبعد، فلماذا تشاء أن تحدد طبعى وشخصيتى الآن؟.. ألم أقل لك مرارًا: إنى شخص غير مفهوم الآن حتى لنفسى!..

على أنى أعتقد أنى خلقت للخير لا للشر، وإذا نفذ إلىّ الشر فمنكم أنتم يا أصدقائى ومعارفى!..

«أندريه» ما هذا الانقباض والاكتئاب في آخر رسالتك؟.. إنك تذكرنى ب «توفيق الحكيم» في إحدى أزماته القلبية والفكرية في باريس!..

ولا عجب لمثله إذ يكتئب هناك وينقبض على الدوام فلقد كان تعسًا حقّا، خائبًا فاشلا في كل نوع مارسه من أنواع الحياة: خاب في الجامعة، وخاب في الحب، وخاب في الأدب.. لم يظفر قط بانتصار في شيء ما ـ ذلك الانتصار اللازم للشاب كى ينتعش، لزوم الأمطار للأزهار!..

لقد صفعه الحب على الخد الأيمن، ولطمه الأدب على الخد الأيسر، ثم وقع أخيراً ذليلا على أرض العذاب النفسى، إذ تذكر أنه مازال يعيش من مال أهله، فهو ليس حرّا حتى في الفشل!..

وليس له الحق حتى في حرية الرضا بالشقاء.. ولكن أنت يا «أندريه»؟.. ما الذي يقبض نفسك ويملؤك اكتئاباً؟.. لعله منظر الخريف الكئيب حولك، وتساقط الأوراق الصفراء!..

إن في قلب الشاعر مقياس حرارة يتأثر أحياناً بمظاهر الطبيعة، فيبكى لبكائها، دون سبب آخر يدعوه إلى البكاء!..

لم يُتَحْ لى في لحظة من لحظات حياتى أن أحزن لحزن الطبيعة، أو أبسم لابتسامها، فإن ما عندى من أزمات داخلية شغل قلبى دائماً عن الطبيعة!..

إن عَيْنَىّ مصوّبتان دائماً إلى أعماق قلبى!..

آه لو نزع عنى قليلا هذا الجراب المملوء بالأرزاء!..

يبدو لى يا «أندريه» أنى إذ أرفع بصرى إلى الحياة الخارجية، وأنسى نفسى الداخلية، يعود إلىّ الصفاء، ويشرق وجهى بروح الفكاهة والمرح.. إنى أستطيع أن أكون أكثر الناس مرحا ودعابة وضحكا، فأملك هذه الروح الفكاهية أحياناً، ولكنى لا أجرؤ على الابتسام طويلاً!..

لا تحسب يا «أندريه» أن أسباب كآبتى، وضعف ثقتى بنفسى؛ قد زالت الآن!..

على النقيض.. ومع ذلك ها أنت ذا تشعر بتغير في حالتى النفسية!..

الواقع أنى تغيرت، فأنا هادئ، صاف، مطمئن، فلا حُمّى، ولا حرارة، ولا حماسة!..

ولا شيء يهزنى من تلك الأشياء.. ربما كان هذا، لأنى لم أعُدْ أطمع بعد في شيء، فأنا أسير في يد الزمن، كما يريد لا كما أريد!..

معذرة إذا كنت أتجنب الكلام في انقباضك أنت، فأنا أحب أن تعلم أنى لا أعيره أهمية ولا التفاتا، وإنى لأراه غمامة سوداء من غمام الخريف!..

إن ثقتى فيك، وفي قوتك، وفي نجاحك في الحياة، لعظيمة!..

وختاما أنصح لك أن تصحح عقيدتك فىّ مرة أخرى!..

من طنطا

الرسالة الأولى

«طنطا» في..

عزيزى «أندريه»!..

أهنئك «بالنويل»، وبالعام الجديد، من مدينة «طنطا»، فقد عيّنت وكيلا للنيابة بهذه المدينة!..

إنها عاصمة إقليم يعد أكبر أقاليم القطر المصرى!..

لك أن تفخر إذن بصديقك بعض الفخر!..

لن أمضى في الكتابة لأنى غير متتبع ما تفعل الآن، فقد انقطعت بيننا السلسلة، وأخشى أن تكون غير مستعد لإنفاق بعض الوقت في مطالعتى!..

إنى مطمئن كما ترى بعض الاطمئنان.. فالعمل في القضاء قد قضى على كثير من هواجسى الأولى!..

إنى أبت الآن في حياة الناس، وأطلب رءوس الناس، فيجب على الأقل أن يكون لى رأس يدرى ما يصنع!..

ومع ذلك.. كلا.. لست في الاطمئنان الذي تظن!..

اكتب إلىّ!..

اكتب إلىّ يا «أندريه»، كما كنتَ من قبل!..

إنك لا تدرى خطر سكوتك!..

الرسالة الثانية

«طنطا» في..

عزيزى «أندريه»!..

رسالة منك.. أخيرًا؟!..

آه.. صدق من قال، وأنت نفسك القائل: إنه لا يجب أن آخذك أحيانًا على سبيل الجد!..

لو علمتَ كيف أقمتُ الدنيا في نفسى وأقعدتها لسكوتك.. وأخيرًا ها أنت ذا تتكلم فائزًا باسما تلك البسمة الساخرة، لتقول لى في هدوء وبساطة: «لماذا كل هذه الأهمية التي تريد أن تعطيها لسكوتى؟!..» يا لله!..

بماذا أجيب؟.. لا شيء... إن الحق لاشك في جانبك!..

والآن فلنتحدث: تقول: إنك لا تكتب إلىّ، لأنك الآن تعيش بلا تفكير.. عجبًا، أو لا يمكن أن تكتب إلى بغير أن تفكر؟.. أحقّا أن اتصالنا الكتابى له عندك كل هذا الاعتبار؟!..

أتراه قد سلم من عبثك وهزلك؟.. وما عساك تقول إذا أخبرتك أنى الآن أبعد منك شوطا في هذا السبيل!..

عبثًا تحاول اليوم أن تتعرف فىّ مُحِبّ الأدب والفن والتفكير!..

كلمات كانت هى كل حياتى منذ سنوات... وإن شئت فمنذ وجودى!..

تقول: إنه ليس لديك الوقت الآن للمطالعة والتفكير، فإن الحياة قد جرفتك في خضمها!..

هذا حسن!..

أما أنا، فحتى إن وجدت الوقت، فلست واجدا الجو، ولا المحيط، ولا البيئة، ولا المناسبة!..

كل ما يكتنفنى اليوم من مناظر وجماد وإنسان لا يثير فىّ شيئًا، مما يرفع النفس فوق ذاتيتها!..

فكل ما حولى هو مما يهبط بالنفس أدنى من ذاتيتها!..

إنى أعيش في جو الجريمة، وأحيانًا في عالم الغرائز الدنيا!..

إنى مع القبح الآدمى، المادى والمعنوى، ليل نهار، وجهًا لوجه..! La Laideur a La Laideur أهذه هى الحقيقة؟.. أهذا هو عالم الواقع الذي كان ينبغى أن أهبط إليه؟!..

لعلك تريد أن تسألنى متعجبًا: «كيف أنت كوكيل نيابة؟!..

» لأنك مازلت تعتبرنى الشخص الغارق في الخيال، ولم تستطع قط أن تصحح في رأسك تلك الصورة!..

واأسفاه!..

لو علمت كيف تحطم اليوم هذا التمثال!..

الأدب والتفكير لم يبق معى منهما شيء!..

تقول في آخر رسالتك: إنك بدأت مع ذلك تطالع «تاريخ الفلسفة» و«أرسطو»... واهًا لنفسى، وما وصلتُ إليه!..

لكم كنت أود لو أظل طول حياتى في تاريخ الفلسفة!..

أى جمال فكرى تحرمنا إياه الحياة لتقذف بنا وسط هذه الجثث والأشلاء؟!..

لكنك أردت لى يوما أن أواجه عالم الواقع؛ فهاك ما أردت!..

هأنذا في عالم الجثث والجيف.. أنا الخيالى الذي لا يعرف من الإنسان إلا ما في الكتب «الفلسفية أيضًا»، أقف الآن في كل يوم على عمليات تشريح جثة الإنسان!..

أنا الذي اعتقد في نفسه طويلا رقة الحس، إلى حد الارتعاد من منظر أصبع تجرح، مما صرفنى يوما عن التفكير إطلاقا في دراسة الطب، آمر الآن طبيب المركز بتقطيع أوصال الجثث بالمشرط في حضرتى، لأنظر إلى تجاويف الصدر والقلب والأمعاء!..

أنا الشاعر مرهف الشعور، أطلب وأشاهد الجزر والتقطيع ولا أرتعد.. أنا الذي كان يحسب الإنسان، كما صورته الكتب وتخيله الشعر!..

لقد فهمت الآن أنى حقيقة كنت طفلا؛ إذ كنت أجهل من أى شيء نتركب نحن؛ لكنى من جهة أخرى، فهمت أيضًا كلمة «جوته»: «إن العلماء يزعمون أنهم فهموا الإنسان، وقد نُزِعَ عنه أثمن شيء فيه، بل كل شيء فيه». (ربما قصد الروح وحياة الحواس)!. من المستحيل على من لم يحضر التشريح قط أن يدرك معنى كلمة «جوته» على حقيقتها.. لقد أفادنى التشريح في شيء: لقد خرجت منه وأنا أشد إيمانًا بالروحية من قبل. وأقوى إيمانًا كذلك بأنى رجل يستطيع أحيانًا ـ في سبيل حب المعرفة ـ أن يكون غليظ الكبد، فاقد الشعور، وبأنى رجل يدرك أيضًا قيمة الحواس المادية في الإنسان!..

أجل يا «أندريه»!..

درس التشريح ثبت إيمانى بالروحية والمادة معًا في كيان الإنسان، وجعلنى أتأمل مرة أخرى، وأعيد النظر من جديد في قضية الأدب، وأتساءل: ما رسالة الأدب إلى الناس؟.. أهو نصرة الروح، أم نصرة المادة؟.. لقد اعتاد المفكرون تحقير المادة للرفع من شأن الروح!..

ولكن أليس للمادة صوفيتها هى أيضًا؟!..

إن العين النشوَى بمنظر جميل، والأنف السكران بشذا عاطر، والفم الهانئ بمذاق لذيذ، وكل حواسنا التي تصلنا بعالم المادة؛ لقديرة أحيانًا أن ترفعنا إلى سعادة شبه روحية كلما تنبهت هذه الحواس، وتيقظت وتدربت وعرفت كيف تستخلص من المادة أجمل ما فيها!..

إن حواسنا المادية هى أحيانًا الجسر الذي نبلغ به عالم الروح.. هنا أستطيع أن أقول لك إن الأدب العربى ـ على ضعفه البنائى وفقره في القوالب الفنية ـ كان غنيًا في مراميه واتجاهاته؛ فهو لم يطرح من حسابه الإشادة بالسعادة التي تبعثها الحواس المادية، إلى جانب إشادته بالمتعة الذهنية التي تصدر عن قوانا المفكِّرة؛ ففى أغلب كُتُب الأدب العربى نجد فصولا طوالا عن مباهج الأكل، والشراب، والطعام، والخمر، والمسك والريحان، ومتع الملبس، وحتى متع الجسد، أو ما يسمونه «الباه» ـ كل ذلك يسجلونه بعناية، لا تقل عن عنايتهم بالفصول الأخرى، التي يدونون فيها لذائذ العقل وطرائف البيان، وهم يكتبون ويَنْظِمون في موضوعات حسية، مما نسميها شائكة بصراحة تامة؛ لأن «الفضيلة» عندهم سلوك ومعاملة، ورجولة وشهامة، لا إنكار لمطالب الحواس، ولا إغفال لقوانين الطبيعة!..

ذلك في نظرى دليل الحيوية!..

وإنى لم أدرك معنى «الحيوية» على نحو عميق إلا يوم حضرت «التشريح»!..

عند ذاك بدأت أرى أن رسالة الأدب ليست نصرة الروح على المادة، أو نصرة المادة على الروح؛ ـ إنما رسالته إقرار التوازن بينهما بإنماء هذه «الحيوية» في كل منهما؛ لأن «الإنسان الحى» حقّا هو ذلك الكائن الذي تيقظت فيه كل حاسة وملكة ـ مادية أو روحية ـ وتكونت وتهذبت؛ حتى استطاعت أن تحصل له، وتتخير أجمل ما في الوجود من عناصر السعادة الروحية والمادية!..

أعتقد أن تلك غاية البشرية كلها منذ القدم، ترى أثرها في الوثنية: «مصر القديمة، والهند، والإغريق، والرومان» ثم في الإسرائيلية والإسلام!..

ولم يشذ عنها إلا عصر الرهبنة المسيحية في القرون الوسطى، حيث طغت فكرة تضحية الجسد من أجل الروح، فأهانوا المادة.. تلك الإهانة التي ما زالت لاحقة بها حتى اليوم، وخلطوا الفضيلة بالزهد، وخلطوا الرذيلة بالمتعة، وتغير مدلول كلمة «الأخلاق الفاضلة» في ذلك العصر، عن مدلولها في عصور الحيوية والفطرة!..

ولم يخفف عصر النهضة في أوربا من تلك الفكرة فيما يتعلق بالأدب إلا تخفيفًا يسيرًا؛ فلبث الأدباء والشعراء هناك حتى العصور الحديثة، يرون واجبهم في تحقير المادة والحواس المادية عند الإنسان!..

في رأيى أن إغفال أى حاسة من حواسنا هو إقفال باب من أبواب المعرفة!..

إن المعرفة البشرية لا تدخل إلينا من باب العقل وحده، إنما تتسرب إلينا من كل مسام جلدنا وجسدنا، وذهننا وروحنا، ووعينا الظاهر والباطن؛ فمن كان يتوق حقّا إلى المعرفة الكاملة والحقيقة العظمى، فليفتح لها كل الأبواب والنوافذ.. كنت أودّ أن أحدثك طويلا عن حياتى الجديدة في «طنطا»، ولكنى أكتفى اليوم بأن أقول لك: إنى أقطن النُّزل النظيف الوحيد في هذه المدينة، وهو «بنسيون» يحوى من النزلاء ثلاثة من

الفرنسيين، وإنجليزيّا واحداً، واثنين من الألمان؛ وهم من المدرسين وموظفى «البنك»!..

وقد اشتريت «جراموفون» جديداً، وأحضرت من «القاهرة»، أخيراً «السانفونية السادسة» أى الريفية، وقد كلفتنى مائة وخمسين قرشاً، وأوصيت بشراء «التاسعة» وهى في عشر أسطوانات للشهر المقبل!..

الرسالة الثالثة

«طنطا» في..

عزيزى «أندريه»!..

أشكر لك أقفاص المحار البرتغالى التي أرسلتها إلىّ مصوّرة على ظهر «كارت بوستال»!..

إنك عرفت كيف تثير منى الذكرى وتجرى من فمى اللعاب!..

وبعد، فلقد تباطأتُ في الكتابة إليك؛ لأنى بالخبرة والتجربة تبين لى أنك ذواقة في شئون الفكر، كما أنا كذلك في شئون الفم على الأقل، على حد اتهامك إياى؛ فرسائلى التي لا تعجبك لا تحسب عليك، لهذا آثرت السكوت على الكلام الفارغ.. هذا سبب؛ والسبب الآخر أن حياتى الآن تتعارض قليلا مع الكتابة؛ لأنها حياة، وليست بعد تعبيراً عن الحياة، ولكن ما أسعدك أنت بهذا!..

هذا كل ما كنتَ تتمنى لى: الحياة!..

نعم يا عزيزى «أندريه»!..

إنى غارق في الحياة والواقع إلى أكثر من أذنى.. وثق بأن التعبير عن هذه الحياة هو ما لا أريدالاشتغال به الآن، حتى لا يقال: إنى في وظيفتى

القضائية، وفي كرسى النيابة، إنما أقعد على «فوتيل» رقم كذا؛ لأشاهد الحياة مشاهدة النظّارة في قاعات التمثيل!..

ولن يقول هذا أحد سواك.. وربما «مسيو هاب» لو علم!..

كلا!..

إنى أعيش الحياة وكفى، فلنترك إذن رواية خبرها للمستقبل، ولنسطر أفكارنا العابرة فقط، تلك الأفكار الفارغة التي لا بد منها لملء رسائلنا!..

على أن هذه الأفكار قد ذهبت عنى الآن أيضًا، ولم يبق منها ما يستحق أن أبعث به إليك، فاعذرنى إذا ألقيت على الورق بكل ما يمر برأسى من خواطر.. أندريه!..

يجب أن تعلم أن نافذة حجرتى تشرف على ميدان «الساعة»؛ ولكى تعرف أهمية هذا الميدان يكفى أن أخبرك أنه في «طنطا» بمثابة ميدان «الكونكورد» في «باريس»!..

ومع ذلك، فإنه ليخجلنى أن أصف لك ما تقع عليه عينى، وسط هذا الميدان.. لست أعنى البشاعة الفنية التي تقوم عليها تلك الساعة الكبيرة، فمما لا ريب فيه أنه لم يرد على خاطر أحد أن يقيم في ذلك المكان شيئًا فنيا على الإطلاق ـ بشعًا كان أو غير بشع ـ إنما الذي أعنيه هو انعدام كل ذوق، وزوال كل لياقة.. فقد أنشئوا ـ وسط الخضرة المغروسة في قلب الميدان ـ بناء ظاهرًا، وهيكلا بارزًا، يكاد يشمخ على غيره من المبانى بجلال موقعه!..

أتدرى ما هذا البناء؟.. إنه ليس أثرًا تاريخيّا، ولا نصبًا تذكاريا، ولا معبدًا فنيّا!..

إنه مرحاض عمومى!..

ومع ذلك لا تنس أننا نحن الذين أهدينا إليكم تلك المسلة الرائعة، التي عرفتم قدرها، فاخترتم لها أرحب مكان في صدر «باريس»، وهو ميدان «الكونكورد»!..

ثق بأن لدينا من أمثال هذه المسلة عدداً كبيراً، ملقى هنا وهناك في الرمال، ولكنهم عندنا يفضلون المراحيض؛ لأنها في نظرهم أنفع على الأقل وأجدى!..

آه يا «أندريه»!..

كل يوم تبرهن لى الظروف على أنى ـ كلما دنوت من منطقة الفن والفكر في مصر ـ أصاب بخيبة أمل!..

إن روح الجمال والفن لم يحلّ بعد ـ أو على الأصح ـ لم يُبْعَث من جديد في أرض مصر الحديثة.. من المسئول عن قتل روح الفن في مصر، وقد كانت هى منبع الفن منذ القدم؟... إنى لست من رأى القائلين: إن العرب هم المسؤلون!..

إن العرب ليسوا بهادمى حضارات.. إنهم طافوا بمدنيات زمانهم يأخذون وينبذون، ويتخيرون ويتركون... ولكنهم ما هدموا قط وما حطموا!..

إن المسئول هم المغول!..

ذلك الجنس القادم من أواسط آسيا بلا حضارة ولا مدنية، ولا مزية غير مزية الحرب والضرب!..

أولئك هم الذين حطموا المدنية الإسلامية بما جمعته ونقلته وصقلته من مختلف الحضارات!..

إن مجرد الاطلاع على تاريخ مصر في تلك الحقبة المظلمة، التي وصفها «الجبرتى» ليكفينا أن نرى إلى أى درك هوت بلادنا المسكينة، بل إن لغة

«الجبرتى» في ذاتها ـ وقد كان من خيرة علماء الأزهر وقتئذ ـ لأنصع دليل على أن اللغة العربية نفسها قد سقطت فيما سقط تحت سنابك الجياد في جيوش أولئك البرابرة!..

وخرجنا من هذا الظلام؛ كما خرجت أوربا من القرون الوسطى!..

هى ارتمت في أحضان الإغريق وارتمينا نحن في أحضان الغرب!..

هى سارت في عصر النهضة من التقليد إلى التجديد، ونحن لم نزل في طور التقليد!..

ولعل هذا يفسر لك أسلوب «المويلحى» الذي حدثتك عنه ذات مرة.. على أن هناك بوادر كما قلت لك، ولا أكثر من بوادر، تدل على أننا بدأنا نتحرك نحو عصر نهضتنا، ولكن السير الجدى نحو هذه النهضة يتوقف على ثقافة القائمين بها؛ فنحن نعيش اليوم في عصر حضارة عظيمة هى الحضارة الأوربية.. فأى جهل منا بفرع من فروع هذه الحضارة معناه التخلف والقعود... إن روح الحضارة الإسلامية الحقيقى كان الطموح إلى الإلمام ـ على قدر الإمكان ـ بكل الأفكار والمعارف والعلوم والفنون الشائعة في الحضارات المعاصرة لها.. مما لاشك فيه عندى أنه لو لم يكن «المغول» لما تخلفت الآداب العربية والفنون الإسلامية عن نظائرها في الحضارة الأوربية القائمة؛ لأن التبادل الفكرى كان دائماً بين حضارة الإسلام والحضارات الأخرى.. وإن من السهل أن نتصور المجرى الطبيعى للمدنية الإسلامية إذا استبعدنا «الخطر المغولى»؛ لقد كان فلاسفة العرب متصلين بأوربا، وكانت عقلية العلماء والأدباء في الممالك العربية متفتحة لتقبّل كل تطور تأتى به روح العصور التي يعيشون فيها!..

فما كان هناك سبب قط يدعو التفكير العربى إلى التخلف عن أى تفكير معاصر يتطور ويتجدد؛فإما أن يسير في موازاته، وإما أن يأخذ منه ويعطى، ويؤثر فيه ويتأثر به، ويحدث بينهما ما يحدث الآن بين التفكير اللاتينى

والتفكير السكسونى من تفاعل وتداخل وتعانق وتزامل... فإذا أردنا القيام بعصر نهضتنا جديّا فعلينا التشبع بهذه الروح... أما أن نظن النهضة في مجرد تقليد العرب بالحالة التي وقفوا عندها يوم انهيارهم أمام «المغول»، من دون أن نلقى بالا إلى القرون والأجيال، التي انطوت، وذهبت، وفصلت ذلك العهد عن عهدنا الحاضر، بما استجد فيه من علوم وفنون وأساليب حديثة، فهو حمق وعمى وجهل، لو اطلع عليه العرب الأقدمون أنفسهم لسخروا منه ومنا.. من أجل ذلك كان الشرط الأول، في نظرى، هو الثقافة التامة... نعم، ينبغى لنهضتنا رجال من طراز رجال عصر النهضة في أوربا: رجال موسوعيون يحيطون بكل ثمرات الذهن، ونتائج العبقرية في الحضارة المعاصرة لهم، والحضارات السابقة عليهم ولكن مع الأسف!..

أغلب رجال الفكر والأدب عندنا لا يريدون أن يلموا بأكثر من المادة اللفظية. التي تمكنهم من تدبيج المقالات التي يحتذون فيها النماذج العربية القديمة!..

تصور أن كاتبًا مثل «المويلحى» نزح إلى أوربا هو الآخر، مثل كثيرين من أدباء عصره... لكن عبثًا نحاول أن نلمح في آثاره أو آثارهم ما ينم عن معرفة أو تذوق لفنون أوربا.. إنى لأتساءل: أكانوا يسيرون هناك معصوبى الرأس لا يبصرون ولا يسمعون؟!..

ما الذي كان يصد عيونهم عن آداب تلك الأمم الحية وهى معروضة في الطرقات، تصيح من واجهات المكتبات؟!..

وما الذي كان ينيم أرواحهم فلا يفطنون إلى جمال الهياكل وآثار الفن. القائمة هناك في كل مكان، تكاد تصفع بسحرها البصائر والأبصار؟.. ولا تدع ذا فهم وذوق حتى تبعث فيه النشاط إلى الاطلاع والاغتراف من كل ينبوع من ينابيع الفكر والروح!..

يخيل إلىّ أن «الحريرى» نفسه لو بعث من قبره ووضع هناك لما طال به الأمد عن التنبه والتفطن والانتعاش والانتفاع؛ بكل ما ينبض حوله من مظاهر الحضارة الحية القائمة. إن العرب كانوا ذوى يقظة وفطنة وإحساس وتأثر بكل ما جاورهم وعاصرهم من مدنيات. إن أدباء هذا العصر لمن طراز غريب!..

إنهم لا يمكن أن يُنْسَبُوا إلى العرب، حتى إن أجادوا تقليد أساليبهم... إنهم في رأيى طراز قد طُعِّم بالروح المغولى.. ذلك الجنس الذي يقلد ولا يبتكر، ويسيطر ولا يبصر، ذلك الجنس الذي استطاع أن يبلغ أسوار «فيينا»، ويتوغل في أوربا دون أن يرى شيئًا من تقدمها الذهنى، ودون أن ينتفع بشىء من حضارتها الفكرية!..

كل مجد المغول في الحرب، كل فنهم تقليد بعض ما وقع في أيديهم من الأساليب العربية تقليداً ضيقًا، وكل فكرهم حفظ بعض النصوص الإسلامية حفظًا مغلقًا.. وهكذا ورث تلك العقلية المغولية أدباء العربية في هذا القرن... فلم يروا شيئًا ولم ينتفعوا بشىء غير ذلك، ولم يخرجوا عن نطاق تلك الدائرة المقفلة... حتى الفكر الإغريقى الذي اتصل به العرب، وتفقهوا فيه، وكشفوا للعالم عن مراميه.. هو أجنبى عنهم، ومن باب أولى «الأدب الإغريقى» وهو أعقد من الفلسفة الإغريقية وأعسر؛ لأنه متصل بالفنون الأخرى اتصالا وثيقًا... خذ المآسى الإغريقية مثلا... محال أن ينفذ إلى لبها وروحها من ليست له دراية، لا بفلسفة الإغريق وحدها؛ بل بكل أساطيرهم وفنونهم، من النحت إلى الرسم على الأوانى.. لا أمل لنا ـ كما ترى ـ في تجديد الأدب العربى إلا بالاطلاع الواسع والثقافة الشاملة.. إن تربية أهل الأدب في مصر ـ حتى مطلع هذا العصر ـ هى «تربية لغوية» قوامها الكتب: ثقافتهم الكتب وحدها، بها نشئوا، وعليها وحدها اعتمدوا في تكوين ملَكة الإنتاج، هل يمكن أن نجد كاتبًا أوربيّا يعتمد في تكوين ملَكاته الخالقة على الكتب وحدها؟... هل يوجد أولا مثل هذا الكاتب في أوربا؟... وإذا وجد؛ هل

يستطيع أن ينتج هذا الإنتاج الذي تراه يرتكز على فن متين التركيب، أصيل التفكير؟... إن التربية الكاملة الشاملة لمختلف الفنون منذ الصغر هى التي تنمى عند الأديب الأوربى ذلك الإحساس بالتناسق الفنى الذي يرفعه إلى هذه المرتبة من مراتب الخَلْق والإبداع... وإذا سألتَنى عما أعنى بالتربية الكاملة، فإنى أقول لك: هى تربية جميع الملَكات والحواس مجتمعة... فتربية ملَكة العقل وحدها لا تكفى عند رجل الأدب والفن إن لم تصاحبها تربية حاسة البصر، وحاسة السمع... وحتى حاسة الشم والذوق... التربية الكاملة للحواس والملَكات هى ما أسمّيه «الثقافة الكاملة» لا ينبغى لأديب أو فنان أن يترك حاسة من حواسه هملا بغير تكوين... عاطلة لا تؤدى عملا.. يجب أن يعلم منذ الصغر أن لكل حاسّة «آداب لغتها»، وأن عليه أن يحذق «آداب اللغات» جميعها لكل حاسة من حواسه؛ فكما أن آداب لغة العقل والفكر تقرأ في الكتب والمكتبات، فإن آداب لغة العين تشاهد في المتاحف والمعارض والهياكل والآثار الفنية والمناظر الطبيعية... وإن آداب لغة الأذن توجد في قاعات الموسيقى والتمثيل والغناء، وإن آداب لغة الشم في العطور الجميلة!..

ولغة المذاق في المآكل اللذيذة... إلخ.. يجب أن يعلم الأديب والفنان أن من واجبه ألا يجهل قط وجود «الجمال» الأسمى عند كل حاسة من حواسه، وأن هنالك عباقرة قد استطاعوا التعبير عن هذا الجمال، وتمكنوا من استخلاصه واستصفائه وصبه في قوالب فنية رائعة: هى الكتب والصور والتماثيل والمعابد والسانفونيات والأوبرات والأناشيد والتمثيليات والأشعار والأزهار إلخ!..

ما الفنون المختلفة بآثارها الباقية إلا «آداب لغة» كل حاسة من حواسنا... فعلينا أن نلم بتاريخ أدب هذه اللغات، وأن نتذوق أجمل نصوصها في كل ناحية من نواحيها، وألا نقصر التفاتنا على أدب دون أدب، فنظن الجمال في آداب لغة العقل وحدها... أو آداب لغة الفكر؛ ـ إنما يجب أن نعلم أن لكل حاسة عوالم من الجمال لا نهاية لها... وأنه ينبغى لنا ـ إذا أردنا

الارتفاع بآدميتنا ـ أن نسمو إلى تلك العوالم، وأن نجوس في أرجائها الواسعة، مهتدين بقيادة عظماء الفنون الذين طافوا بها قبلنا واستكشفوا قممها وغاصوا على كنوزها... نعم... لكل حاسة وملَكة صحائفها الرائعات في تاريخ العبقرية الإنسانية الخالقة، ولا بد من الاطلاع عليها جميعًا لمن يريد أن يضع يده على أسرار الخلق في الأدب والفن... تلك هى التربية الكاملة والثقافة الشاملة، التي أراها ضرورية لأدباء عصر النهضة، وإذا كان الأدب العربى في هذا القرن واقفًا عند تلك المرحلة البدائية، فذلك لأن أكثر الأدباء لم يتلقوا بعد هذه التربية الكاملة التي تؤهلهم لتحمل أعباء الخلق الفنى الكامل!..

* * *

البارحة كنت في «القاهرة» وحضرت حفلة غناء شرقية، فرأيت عجبًا!..

الحاضرون هم ولاشك من أهل القرن العشرين... ولكن الموسيقى هى من غير شك موسيقى القرن العاشر!..

* * *

أخفيت عنك يا «أندريه» أنى كتبت منذ عام وأنا في الإسكندرية شيئًا كالقصة التمثيلية، بنيتُه على سورة من «القرآن».. وجرفتنى المشاغل فتركت هذا العمل في حقيبة لى، وكدت أنساه لو لم أفتح الحقيبة عفوا منذ أسبوع... قرأته.. أو على الأصح قرأت حوار البطل والبطلة ـ وكانت إحدى مقطوعات «بيرجنت» ل «إبسن» في موسيقى «إدوار جريج» الجميلة تتصاعد من «الجراموفون»... يا للمفاجأة...؟! أنا الذي كتب هذا المنظر؟... لقد غمرنى يا «أندريه» جو شعرى... لست أدرى بعد أمبعثه القصة أم الموسيقى؟!..

لقد تأثرت حقّا من هذا الحوار الغرامى!..

لأول مرة أتأثر لشىء خطته يدى... حبذا لو أستطيع أن أترجم لك هذا المشهد؛ لترى معى هل أنا واهم أو مصيب؟... أما بقية العمل فلم أجد فيه، للأسف، ماهز نفسى..

الرسالة الرابعة

«طنطا» في ٨ يولية..

عزيزى «أندريه»!..

ما أعظم سرورى برسالتك التي جاءتنى على غير انتظار؛ فكم طال بنا الصمت، وبى رغبة شديدة في طول الحديث معك. ولكنك تغيّرتَ قليلا يا «أندريه» وانكمشت صحائفك وندرت رسائلك؛ مما ينذرنى بشر مستطير!..

عهدى بك سيال القلم، ولاشك في أن لديك ما تقول لى وتمسكه عنى قسوة منك.. ألا قاتل الله صحبتك!..

أما قولك: إنك بدأت تكتب، فوجدت الرسائل سخيفة، فآثرت السكوت؛ فهو عذر لا يبديه مثلك لمثلى. ألا تخجل؟... إنى لا أطلب إليك أن تقوم بإنشاء رسالة بالمعنى الأدبى للكلمة، ولعلى كنت كذلك ذات يوم، ولم يشفنى من ذلك الداء غير مصارحتك إياى يوماً بأن بعض رسائلى تنفعك «للف» الحوائج الصغيرة: من أزرار قمصان، إلى مواسى حلاقة!..

إذن ما معنى كلمة السخف عندك؟.. أنت الذي لا يعجبنى منه سوى رسائله التي لا معنى لها وصفحاته التي يخلط فيها الحابل بالنابل، ولا يتحرج أن يستعمل ألفاظ «أباش مونمارتر» و«أوباش مرسيليا»؟!..

إنه ظلم!..

أقسم إنه الظلم بعينه: أن أكتب إليك أنا كل هذه الرسائل، مع ما أنا واقع فيه من عمل مهلك!..

إن مجرد وصف عملى ومقداره خصوصاً في فصل الصيف ليحتاج إلى إفراد رسالة طويلة.. تصور أنى أعمل بدل ثلاثة من الزملاء: إذ ليس لى إجازة هذا العام، أو الأصح: إنى نزلت عنها للآخرين: شهامة منى أو حماقة... البرنامج اليومى كالآتى: عمل في دار النيابة من الثامنة صباحاً إلى الثالثة بعد الظهر، ومن الخامسة مساء إلى الثامنة، لتحقيق التلبس وقضايا المكتب... هذا عدا القيام لضبط الحوادث الليلية!..

نعم؛ ذلك أن وكيل النيابة في مصر هو مخلوق فريد في نوعه في عالم المخلوقات القضائية؛ فهو يقوم بعمل النيابة وقاضى التحقيق معاً، وفي نفس الوقت، بالمعنى المعروف لهذين العملين المنفصلين في فرنسا وإنجلترا ودول الأرض قاطبة؟... لذلك ترانى عدا عمل النهار الشاق أقوم كل ليلة تقريباً؛ لأضرب في كل طرف من أطراف مديرية الغربية. حتى ضجت بالشكوى مدام «بلانشان» صاحبة «البانسيون»، وضج معها النزلاء، من طرق الخفراء ليلا على الباب لإيقاظى، وضججت أنا بالطبع، وأصابنى الأرق والسهاد!..

كل هذا أيضاً عدا الجلسات... أتدرى كم جلسة علىّ حضورها في الأسبوع؟... أربع جلسات. وهذا أيضاً خلاف الإيراد اليومى، وهو لا يقل عن خمسين ملفّا تحوى قضايا من كل لون وصنف: جنح، ومخالفات، وعوارض، وشكاوى إدارية، يجب فحصها وقيدها وتقديمها للمحكمة أو حفظها!..

كل ذلك في يوم ورودها!..

لقد قلتها ذات مرة في صيحة وأنا أكاد أجن: إن وظيفة وكيل نيابة مصرى هى أشق عمل في العالم كله... ولا يستثنى من ذلك إلا عمل جندى الخنادق في الحرب العظمى!..

ولننتقل إلى حديث الأدب. آه... ما أشهى كلمة «الأدب» بعد كل هذه المرمطة؟.. إنى لا أملك وقتًا لتذكر هذه الكلمة... لكم أعجب الآن، إذ كنت في يوم من الأيام خاليًا إلى حد إنفاق الوقت في تخيل ما وراء الكتب.. كم من الساعات أضعت في الجلوس جامدًا بمشارب حى «جامبتّا» أنظم الأرض والسماء من جديد، وأعيد بناء العالم طبقًا لتصوراتى ومثلى العليا!..

لو كنت أعلم ما ينتظرنى هاهنا؟!..

لو كنت أعرف أن هذا هو المصير لكنت أشبعت نفسى لهوًا ومرحا في «باريس»، ولاقتصدت في كل شيء، وأرحت نفسى بعض الراحة من ذلك العناء!..

آه لتلك الحمى الخبيئة التي كنت مصابًا بها، تلك الحمى التي أضاعت علىّ كل ما كان يمكن أن يظهر من صفات طيبة.. الآن شُفيت ولله الحمد، وها أنت ذا ترانى شخصا غير متعجل شيئًا... مستسلما للحياة والقدر، فليصنعا بى ما يريدان!..

تسألنى عن الرواية التي حدثتك عنها في رسالتى السابقة؟.. إنها ليست عصرية ولا تاريخية، ولا حتى قصة تمثيلية حقيقية؛ بل .. بل... لست أدرى. ربما كانت عملا فنيًا يقوم على «الحوار» لا أكثر ولا أقلّ... حوار أدبى للقراءة وحدها.. فإن وضعها للتمثيل لم يخطر لى على بال... إن كلمة «التشخيص» التي عرضتنى للإهانة في بدايتى الأدبية، مازالت ترن في أذنى... كلا!..

إن هدفى اليوم هو أن أجعل للحوار قيمة أدبية بحتة؛ ليقرأ على أنه أدب وفكر. هذا العمل على كل حال لا يخرج عن كونه مجرد استلهام أدلى فنى Transposition artistique لسورة قرآنية تُرَتّل في المسجد يوم الجمعة!..

على أنى لا أكتمك أنى ساعة كتبتُها لم أكن تحت تأثير القرآن وحده، بل أيضا تحت تأثير مصر القديمة.. لقد كنت قرأت الكتب الدينية: كتاب الموتى، والتوراة، والأناجيل الأربعة، والقرآن!..

إن مصر القديمة كلها كانت واقعة تحت سلطان كلمة واحدة مَلَكَتْ عليها فكرها وقلبها وعقائدها ومشاعرها: البعث، وهى كلمة ذات أربعة أوجه كالهرم: وجهها الأول: الموت. ووجهها الثانى: الزمن. ووجهها الثالث: القلب. ووجهها الرابع: الخلود!..

هل أنا على حق في تفسير الكتب السماوية تحت ضوء مصر القديمة؟.. ومن منها أصل الأديان؟.. إذا كانت الأديان السماوية هى الحق، فلا بد أن تكون قديمة قدم الحق، أو على الأقل قدم الإنسان، فالأنبياء إذن لم يخلقوا الحق خلقا بظهورهم، ولكنهم كشفوا عن وجوده الأزلى، فلا غرابة إذن في البحث عن منابع الأديان السماوية فيما كان قبلها من وثنية، والبحث عن منابع الوثنية في قلب الإنسان من يوم ظهوره على الأرض.. لو كان المسكين «إيفان» حيا لناقشنى في كل ذلك بما يملأ أسفاراً... على أى حال لا تشغل بالك كثيرا بروايتى هذه، فهى ليست عملا ذا بال.. ولا أحسبها تمتاز عن مخطوطاتى السابقة في كثير أو قليل، إلا أن تكون هى أول عمل أردت أن أستوحى فيه «القرآن»... كما أردت قبل ذلك استلهام «ألف ليلة وليلة» و«المجتمع» المصرى قبيل الثورة.. إلخ.. وبعد. فما من جديد في حياتى هنا، على أنى لا أريد أن أختم هذه الرسالة قبل أن أخبرك أنى سعيد لتشرفى بمعرفة «موزار»: معرفة أوثق عراً من تلك المعرفة السريعة العابرة التي

بدأت في «باريس»؛ فلقد هبط «البانسيون» رجل إنجليزى من نوع Bidlake أو Burlap في قصة «هكسلى»، وأتى معه ب«ألبوم» أسطوانات السانفونيات رقم ٤٩ و٥٠ و٥١ و«سوناتا» رقم ١٠، فسرعان ما تعارفنا بالطبع.. وصرنا نتبادل الأسطوانات.. أنا أعيره «بيتهوفن» وهو يعيرنى «موزار».. آه.. أى جمال وأى سعادة أن تعيش بجوار هذا الطفل الإلهى «موزار»؟!.

الرسالة الخامسة

«طنطا» في...

عزيزى «أندريه»!..

مضت شهور ولم أتلق منك كلمة واحدة.. ماذا بك؟.. ماذا حدث لك؟.. إنى مع ذلك لا أستطيع أن أكفّ عن الكتابة إليك.. إلى مَن غيرك أفضى بهواجسى؟.. أريد أن أتنفس، وأتكلم، وأجد إنسانا يُصغى إلى حديثى!..

إلى ذلك النوع من الحديث الذي لا أجرؤ على الإشارة إليه في بيئتى القضائية.. الويل لرجل القضاء الذي يستكشف زملاؤه فيه أنه أديب!..

إن لنا مجلسا يضمنا كل مساء في قهوة نظيفة؛ فلا نتحدث في غير تصرفاتنا اليومية في القضايا؛ فمن ظهرت عليه بوادر الفكر في حديثه، أو عوارض الفلسفة في خواطره، حملقوا فيه، ثم تهامسوا: «اتركوه... هذا أديب!..

سامحوه.. هذا فيلسوف!..

وذكروها له، وعدوه بعد ذلك ممن لا يوثق في تقديراتهم أو تصرفاتهم القانونية، فإذا لم يجدوا مطعنا في عمله فهم على الأقل متبرمون به وبحديثه. ولن أنسى ذلك الزميل الفاضل قاضى المحكمة الكلية الذي كان مشغوفا بالتاريخ الإسلامى.. وعلى الأخص تاريخ الفاطميين؛ لقد كان في

الواقع واسع الاطلاع فيه.. طلى الرواية؛ فلم يتركه زملاؤه يتحدث في هذا الموضوع قليلا حتى انصرفوا عنه، وصاروا بعد ذلك كلما أقبل عليهم هذا الزميل نهضوا متهامسين: «هلموا بنا.. صاحب الفاطميين حضر!..

فما كان يمكث في استقباله والاستماع إليه غيرى أنا، فلقد كنت حقّا أجد عنده حديثًا يسرنى ويلذ لى.. وتكرر هذا الأمر حتى كدت أتهم أنا أيضًا، ويذكر اسمى معه في معرض التندر والسخرية!..

وجاء اليوم الذي كادت تقع فيه كارثة؛ فلقد هبط المدينة قاض كان من زملاء دراستى بمدرسة الحقوق في القاهرة، وقيد اسمه معى بجدول المحامين في يوم واحد... وشهد انصرافى بعدئذ إلى التأليف المسرحى، وحضر تمثيل بعض رواياتى... فما كاد يرانى بين الحاضرين في المجلس حتى اتخذ مكانه بجوارى... وهو يصيح بى: «أين أنت؟ وأين لياليك ورواياتك التي كانت منذ عشرة أعوام تملأ المسارح؟!..

فحملق فيه رئيس المحكمة ورئيس النيابة، وكانا ـ لسوء حظى ـ بين الحاضرين.. وقالا: «يعنى إيه؟!..

كان في التشخيص؟!..

فغمزت صاحبى... فنظر إلىّ، ورأى في عينى آيات التوسّل والألم والضراعة، ففهم الموقف، وأدرك غلطته، وحاول إصلاحها قائلا: «لا... قصدى أنه كان يميل إلى مشاهدة التمثيل، في ليالى الفراغ»!..

ثم انفردتُ به أفهمه أن ذلك الماضى قد دفن، وأنى الآن من أعضاء الأسرة القضائية المشهود لهم بحسن السمعة؛ فإياك أن تلصق بى كلمة «أدب»، أو كلمة «فن»، أو حتى كلمة «فلسفة»...! أرأيت يا «أندريه» في أى عالم أعيش الآن؟... هل كنت تصدق أن ذلك يحدث لى؟... أأدركتَ الآن مقدار

حاجتى إليك، وإلى الهمس بالحديث معك، من خلال قضبان حياتى الحاضرة؟!..

اكتب إلىّ.. اكتب إلىّ.. أخبرنى بأحوالك كلها... كيف حال «جرمين»؟... وكيف حال الصغير «جانو»؟.. في أى مدرسة هو الآن؟... إنى أتخيّله دائمًا طفلا صغيرًا، يلعب بسيفه الزائف ومدفعه الصفيح!..

الرسالة الأولى والأخيرة

«دسوق... غربية» في..

عزيزى «أندريه»!..

واأسفاه!..

مضى عام وأنا لم أزل في انتظار رد منك، رد صغير ينبئنى بأن الحبل بيننا لم ينقطع!..

يظهر أنه انقطع.. ذلك الحبل الذي كان يربط أحدنا إلى الآخر، ونحن هائمان في جليد ذلك القطب «الفكرى» المرتفع!..

ترى أين أنت الآن؟.. أتركتنى وحدى وذهبت عائداً إلى المجتمع؟.. هل فعلت ذلك؟.. أما أنا فإنى أقاوم.. أقاوم بكل ما لدىّ من قوة وعزم.. إنى أكتب إليك الآن من مدينة صغيرة على النيل!..

تُدعى «دسوق»... هى مع ذلك مركز من أهم مراكز القطر؛ لقد أسندوا إلىّ أعمال نيابتها، فوجدت نفسى أمام عمل هالنى من الكثرة والخطورة... إن قاضى المحكمة لا يقيم في المدينة؛ فهو يحضر جلسته ويذهب، وبهذا صرت أنا الرئيس المسئول عن شئون النيابة والمحكمة!..

لقد تبيّن لى بعد أسابيع قليلة أنى أنا الرئيس المتصرف في هذه المدينة كلها، فالبوليس والإدارة والصحة والهندسة والرى والزراعة، وكل فروع

الحكومة المختلفة تصبّ مشكلاتها بين يدى!..

حتى فيما لا يقع تحت طائلة القانون، وما يكتفى فيه بالنصح والإرشاد، والمصالحة والتوفيق، وإقرار النظام بالحسنى... كل ذلك يحتاج إلى رأيى، ولكلمتى فيه المقام الأول... لقد شعرت حقّا بعبء المسئولية... فدفعنى ذلك إلى العمل المضنى!..

لقد وضعت نظامًا دقيقًا للعمل لا أنحرف عنه قيد شعرة... إنى أعمل نهارى كله.. من الصباح حتى الثانية بعد الظهر، ومن الرابعة حتى السابعة، فأخرج للنزهة ساعة فوق جسر النيل... تلك هى الساعة التي تسمح لى فيها تبعاتى أن أتحرر قليلا، لأعود إلى نفسى وذكرياتى!..

في تلك الساعة الهادئة أسير وحدى فوق الجسر، أتأمل الأمواج في اصطفاقها الخافت... فتلعب في رأسى الأفكار القديمة من جديد، أفكار الفن والأدب... فألتفت حولى حرصًا عليها من مفاجئ، فلا أبصر غير الخفير النظامى يحمل بندقيته ويتبعنى عن بُعد؛ ليبلغنى ما يرد من إشارات مستعجلة، حتى إذا خيم الظلام عدت إلى مسكنى فتناولت العشاء، ثم نظرت في بعض ملفات القضايا، ثم أويت إلى فراشى في انتظار إزعاجى نصف الليل، ببلاغ عن وقوع جناية!..

لقد أحصيت عدد الليالى التي أنتقل فيها إلى حوادث جنائية في هذا المركز... فإذا هى في المتوسط خمس ليال، أى أنى لا أظفر بأكثر من ليلتين في الأسبوع أقضيهما نائمًا في فراشى كما ينام الآدميون!..

إنى أؤدى واجبى دون تذمّر، وأنهض بأعباء عملى القضائى بأمانة وهمة واستقامة، وألحظ أثرها الحسن في مكاتبات الرؤساء الرسمية... إنهم يثقون في تصرفاتى ثقة تملؤنى فخرًا، هل كنت يا «أندريه» تتوقع نجاحى كوكيل نيابة؟... ولا أنا... ما كنت أتوقع لنفسى ذلك!..

لقد ثبت لى أنى رجل أمين، لا يعرف الغش في شروط اللعب!..

إنى في الفن كنت الفوضى بعينها، ولكنى في عمل القضاء أنا النظام بعينه؛ بل إنى ـ مبالغة في الغيرة على سمعة هذا المنصب ـ لا أختلط بالأعيان، ولا برجال الإدارة، ولا بأى شخص أكثر من الاختلاط الذي يدعو إليه العمل الرسمى... لطالما سمعت بأخبار زملاء قضائيين ـ لم يتصلوا يوما بفن ولا بفنانين ـ ومع ذلك لم يبالوا، فكانت لهم في مراكز أعمالهم سهرات «بوهيمية» ومغامرات نسائية... ترَكَتْ أثرًا في صحائف خدمتهم لا يمحى، أما أنا فصحيفتى نقية بيضاء.. ولقد التقيت ذات مرة بالنائب العام، فقال: إنه يعدّنى من خيرة وكلائه عملا واستقامة وسمعة... فأنا إذن يا «أندريه» كما ترى... أسير بخطًا ثابتة نحو الإطار النهائى، الذي يريد أن يحبسنى فيه المجتمع... ماذا بقى لى من الفن، ومن الفنان بقبعته السوداء ذات الإطار العريض؟!..

كنت منذ أشهر بالقاهرة، فقابلنى زميل من زملاء الدراسة يشتغل الآن بالتجارة، ولا يعرف من أمرى شيئًا.. فما إن تفرّس في وجهى وهيئتى حتى قال لى: «ماذا تعمل في الحياة؟.. لابد أنك من رجال القضاء؟!..

. فدهشت وسألته «كيف عرفت؟..». فقال لى: «شكلك وهيئتك وسيماؤك»!..

عجبًا.. أهكذا المهنة قد طبعتنى بطابعها؟... ورنّ عندئذ في أذنى صوت «إيما دوران» يوم قابلتنى أول مرة وتفرّست في وجهى قائلة لى: «ماذا تعمل؟... لابد أنك فنان في «مونمارتر!..

واأسفاه... مات ذلك الفنان.. وحلّت روحه في جسد رجل قانون!..

أترى الفنان يا «أندريه» يبعث من موته يوما؟.. ولكن كيف؟.. كيف يحدث لى ذلك هاهنا.. كيف يحدث ذلك لقضائىّ منظور إليه نظرة الرضا

والاحترام؟.. كيف السبيل إلى الفن الآن... والمجتمع كما ترى قد هيأ لى مكانًا في أحضانه لا أستطيع منه فكاكا؟!..

«أندريه»!..«أندريه»!..

أخشى أن يحطّمنى المجتمع... يحطم الفنان فىّ ... ربما كان قد حطّمنى وكسرنى.. ولكنى أقاوم... منذ أسابيع وأنا أتلقى من أهلى خطابات يغرونني فيها بالزواج، ويذكرون لى أسماء لامعة في الثروة والجاه، ويتهمونني بالحمق والغفلة والعته إذا خامرتنى فكرة الرفض... ويظهر أن كل شيء قد أعد، وأن أصحاب هذه الأسماء قد قبلوا، فالمناصب القضائية ـ شأنها في مصر شأن فرنسا ـ مزيتها الكبرى هى سعرها الممتاز في سوق الزواج، فماذا تقول في ذلك؟.. إنهم ينتظرون قبولى، يكفى يا «أندريه» أن ألفظ كلمة «نعم»؛ ليضع المجتمع أصفاده في يدى الأخرى الطليقة، ويجرنى نهائيًا إلى المصير المحتوم!..

لقد قلت لهم: «لا» بأعلى صوتى!..وهم مشدوهون لا يعرفون السبب!..

«لا».. تلك هى الصيحة الأولى لمقاومتى اليائسة، يجب أن أقاوم وأن أجاهد.. أليس كذلك يا «أندريه»؟!..

أأرضى أن تطوينى الحياة، وترغمنى على ما لا أريد؟.. فيم كان إذن جهادى الطويل في سبيل الفن؟.. فيم كانت الأعوام الطوال التي أنفقتها قراءة واطلاعا، وتحصيلا وتكوينًا، وممارسة لألوان الفن، وأنواع العلم، وفروع المعرفة؟.. لقد أردتُ أن أكون كاتبًا.. وسأكون.. ولكن... ولكن كيف يا صديقى «أندريه»؟.. إنى أخط إليك هذا السؤال بصوت مرتفع في سكون هذا الليل... تحت هذا المصباح الضئيل المستيقظ انتظارًا لجرائم الناس!..

كيف السبيل يا «أندريه»؟.. إنك تعلم أنى عملت وجهدت لامتلاك ناصية فنى.. ولم أكتف ببدايتى الأولى منذ عشر سنوات.. فتناسيتها... وانطلقت من جديد أكتب وأمزق، وأكتب وأمزق.. ولم يسلم من التمزيق أخيراً سوى تلك المخطوطات التي حدثتك عنها.. أظن أنى قد أعددت نفسى إعداداً كافياً... وأظن أنى قد جاوزت السن التي يحسن فيها بأديب أو فنان أن يظهر نهائيا، ليغرس قدمه في ميدان فنه، ويعرض ثماره على أهل وطنه، ولكن مع ذلك.. أنا في شك يا «أندريه»!..

من أدرانى أن فنى يستحق النشر الآن؟.. لم لا تقول إنى متسرع؟!..

لطالما تسرعت من قبل.. ألا يحسن بنا التريث؟.. قد تسألنى: إلى متى؟.. لست أدرى إلى متى؟.. إن الفن حقّا طويل، وإذا تريثت مع ذلك، فسأظل طول حياتى أتريث وأتشكك.. ولكن من جهة أخرى إذا أخرجت للناس شيئًا تافهًا، فماذا يكون جوابك؟.. إن الانتظار إلى آخر العمر لأهون على نفسى الآن من إخراج عمل فنى ناقص، إنى لم أعد الشاب الطائش الذي كنت تعرفه في «باريس»!..

إنى الآن أكره العجلة.. وأبغض النشر لمجرّد النشر، وأقدّس الفن حقيقة، وأنزّه أى عمل فنى عن الظهور، مادمت أرتاب في أمره بعض الارتياب... كلا.. فلنبق كما نحن يا سيدى، وحسبى أن أنظر في مخطوطاتى من حين إلى حين، لأستخرج في كل مرة نقصاً جديداً.. قد تدهش إذا قلت لك: إنى صححت وعدلت وبذلت في كل مخطوطة، وقمت «بتبييضها» من أربع مرات.. أجل يا «أندريه»!..

لكل مخطوطة عندى ـ كبرت أو صغرت ـ أربع نسخ Version مختلفة بخط يدى... على أننا إذا طرحنا جانباً مسألة النضج الفنى لعملى، وهل تم قليلا أو لم يتم؟.. ومسألة الإقدام أو التريث وأيهما الأصوب؟.. ومسألة الثقة

أو الارتياب وأيهما الأرجح؟.. فإن هنالك مسألة أخرى يجب ألا تغيب على خاطرك: المجتمع الذي حولى الآن!..

كيف السبيل إلى الخروج من إطارى القضائى؟؟.. كيف أنشر فنّا دون أن أتعرض لسخرية الزملاء، وخيبة أمل النائب العام، وفجيعة الأهل والخلصاء... آه يا «أندريه»!..

معذرة!..

إنى أفكر الآن تفكيراً سخيفًا.. هذا كلام غير خليق بفنان!..

ولكن هل أنا فنان؟... أتراها القبعة السوداء هى التي كانت تملأ رأسى بهذه الأوهام؟!..

لقد خلعتها؛ كما تعلم منذ زمن بعيد... وهأنذا اليوم أتشح بالوسام الأحمر الأخضر!..

ولم أعد أسمع أحداً ينعتنى بالفن.. ربما قلت لى: يكفى أن تصغى إلى الصوت الصاعد من أعماق نفسك!..

أجل يا «أندريه».. ولكن نفسى الآن ينخر فيها الشك، وما عدت أصدق لها كلاما!..

واخجلاه!..

لست أدرى كيف يتكلم هذا الكلام رجل يتشبث بالفن.. حقّا يجب أن أؤمن بالفن.. الإيمان بالفن هو «التعويذة» التي تفتح لى الطريق.. إنى أؤمن ب «أبوللون» أؤمن ب «أبوللون» إله الفن الذي عفرت جبينى أعواماً في تراب هيكله!..

إنه ليعلم كم جاهدت من أجله، وكم كافحت وناضلت وكددت!..

باسمه أخوض المعركة الكبرى وأنازل كل مجتمع وكل عقبة تحول بينى وبين فنى الذي منحته زهرة أيامى التي لن تعود!..

الفـــهـــرس

مقدمة

من باريس

الرسالة الأولى

الرسالة الثانية

الرسالة الثالثة

الرسالة الرابعة

الرسالة الخامسة

الرسالة السادسة

الرسالة السابعة

الرسالة الثامنة

الرسالة التاسعة

الرسالة العاشرة

الرسالة الحادية عشرة

الرسالة الثانية عشرة

الرسالة الثالثة عشرة

الرسالة الرابعة عشرة

من الإسكندرية

الرسالة الأولى

الرسالة الثانية

الرسالة الثالثة

الرسالة الرابعة

الرسالة الخامسة

الرسالة السادسة

الرسالة السابعة

الرسالة الثامنة

الرسالة التاسعة

الرسالة العاشرة
الرسالة الحادية عشرة
الرسالة الثانية عشرة
الرسالة الثالثة عشرة
الرسالة الرابعة عشرة
الرسالة الخامسة عشرة
الرسالة السادسة عشرة
الرسالة السابعة عشرة
الرسالة الثامنة عشرة
الرسالة التاسعة عشرة
الرسالة العشرون
الرسالة الحادية والعشرون
الرسالة الثانية والعشرون
الرسالة الثالثة والعشرون
الرسالة الرابعة والعشرون
الرسالة الخامسة والعشرون
من طنطا
الرسالة الأولى
الرسالة الثانية
الرسالة الثالثة
الرسالة الرابعة
الرسالة الخامسة
الرسالة الأولى والأخيرة